
عادل حموده
تركيا
الفستق
و
الأفيون

عادل حمودة

الحائز لجائزة الدولة فى أدب الرحلات

تركيا .. أرض الفستق والأفيون !

الناشر

مكتبة غريب

٣٠١ شارع كامل صدقى (الفجالة)

· تليفون ٩٠٢١٠٧

تركيا .. أرض الفستق والأفيون !

تجسس لحساب الشمس !

كان الطريق المغطى بالثلوج فى «أنقرة» يصعد إلى أعلى . . والشمس تغرب عند نهايته . . راسمة على الجليد ثروة من الألوان .

الأحمـر يهمس فى أذن الأصفـر . . الأخضر يغـازل الأزرق . . والبنفسجى يقـترب بحذر من الأحمر . . ثروة من الألوان تجمعها سلة «قوس قزح» التى صاغتها يد السماء .

مشهد جميل . . ساحر . . يشد عينيك وقلبك . . ويريح أعصابك وعقلك . . وقفنا أمامه فأحسسنا أن الكون كله فى ساعة صلاة .

قال لى رفيقى المصور «عاصم الصبان» :

ـ هذا مشهد يستحق التسجيل .

وعـاصم الصبـان شاب سعـودى ، درس وعـاش فى مدينـة الاسكنـدرية . . أغـراه البحـر وأغرته الأمواج والصخور ، والزهور ،

وفتيات بحرى بهواية التصوير . . ولم يعد من الممكن أن يرى مشهدا من مشاهد الطبيعة دون أن يسجله بعد ستة .

قلت له :

ـ المشهد ساحر فعلا . . صور .

ونزلنا من السيارة وتم التصوير .

لكن . .

تم فى الوقت نفسه القبض علينا .

فالشمس التى التقطنا صورتها ، كانت تغرب مباشرة وراء بوابة القيادة العامة للقوات المسلحة التركية .

وقادنا الحرس أمام فوهات البنادق إلى داخل المبنى . .

تصورت أن المسألة إجراء روتينى سرعان ما ننتهى منه بمجرد إبراز جوازات سفرنا . .

أو فى أسوأ الأحوال سيخلعون الفيلم من الكاميرا . . ويطبعون الصور . . يتأكدون من حسن نيتنا . . فلابد أن فى جيشهم خبراء يميزون بين الصور البريئة ، والصور المريبة . . بين مشاهد الطبيعة الساحرة ولقطات التجسس المحترف . . وأخذت أضحك مع زميلى المصور فى انتظار الضابط الذى سُينهى هذه الاجراءات الروتينية . . تبادلنا القفشات التى صور فيها كل منا الآخر كجاسوس ، يقف أمام كاميرات التليفزيون ، ويعترف أنه جاء إلى أنقرة ليتجسس لحساب الشمس وقت الغروب . . ولحساب قوس قزح ، وضباب الشتاء

والجليد . . ولا أعرف ما الذى جعلنا نضحك ، ونضحك حتى كدنا نستلقى على وجهينا . . وكأننا لسنا فى قيادة الجيش التركى ، وإنما فى مسرح عادل إمام .

وطال الانتظار . .

وانقلب الضحك إلى جد . . وانقلب الجد إلى نكد . . وأحسسنا أننا فعلا وقعنا فى مصيبة .

فقد بدأ التحقيق ضابط صغير . . ثم ضابط كبير . . ثم ضابط أكبر .

ويبدو أن روايتنا عن تصوير الشمس وقت الغروب رواية ، يرويها كل الجواسيس ، فقد أحسست أنهم يستمعون إليها وهم يهزون رؤوسهم ، ويبتسمون إبتسامة ساخرة ذات مغزى . .

وكلما كررنا الرواية ردوا علينا بكلمة واحدة : «مفهوم» . . «مفهوم» . «مفهوم» .

وكان علينا أن نفهم من كلمة «مفهوم» أنهم لا يفهمون . وكان علينا أن ندرك أننا وقعنا فى يد «الأتراك» وأنهم لن يصدقوا رومانسيتنا إلا بمعجزة من السماء .

وانتقلنا من مبنى القيادة العامة إلى مبنى المخابرات العسكرية . . ومن مبنى المخابرات العسكرية إلى مبنى المخابرات العامة . . ومن مبنى المخابرات العامة إلى مبنى الشرطة المدنية . .

كل ذلك من أجل إكتشاف أبعاد الحادث الخطير . .

كانت كل جهة تسلمنا إلى الجهة الأخرى ، بمندوب و حرس ، و«سركى» وتوقيع بالاستلام ، مع طبع «ختم» النسر . . النسر التركى طبعا وتحولنا فى ساعات إلى «عهدة» . . «عهدة» تنتقل من جهة إلى أخرى ومن مسئول إلى آخر . . وكأننا «شوالين» بصل . . أو صندوقين طماطم . . وأحسست أن الأمر سينتهى بنا إلى جهة تتسلمنا ولا تُسلمنا . . فلا تجد أمامها مفرا من وضعنا فى سجن أو مخزن ، حتى تظهر الحقيقة ، أو يظهر لنا صاحب .

أصبح موقفنا فى غاية الصعوبة والحرج .

وزاد الطين بلة أن تركيا تحت الحكم العسكرى . . والأحكام العرفية تسود البلاد . . وتسيطر على كافة مظاهر الحياة . . ويخضع لها كل الناس . . والجيش فى تركيا عندما يحكم فقل يا «داهية» دقى ، وارقصى ، فلا تفاهم على الإطلاق ولا حوار ، أو كلام ، أو سلام . . تاريخنا مع الأتراك يؤكد ذلك وأكثر . . ويؤكد أن عقل الجندى التركى يُغلق بالأمر ، ولا يُفتح إلا بالأمر . . والويل كل الويل من جندى تركى أمره قائده بإغلاق عقله ، ثم سافر قبل أن يغير الأمر .

إنها تلك العقلية التى تعبر عنها ببراعة قصة ذلك التركى المتغطرس الذى قرر أن يكسب ثوابا ، ويسقى الناس المياه فى «قلل» فإذا ما أمسك أحد واحدة منها ، صرخ فيه : أدب يوك سيب دى . . واشرب من دى .

هذه هى العقلية التى أوقعنا شر أعمالنا فى شركها . . أو فى الحقيقة أوقعنا أجمل أعمالنا فى شباكها . . أكثر من ذلك كان من الصعب التفاهم بيننا ، بسبب اللغة . . فهم يصرون على الكلام معنا بلغة هى مزيج من اللغات التركية والعربية والانجليزية . . ونحن نفهم مايقولون بصعوبة . . وعندما كانوا يتكلمون مع بعضهم البعض كانوا يستخدمون اللغة التركية . . وهى لغة لم أفهم منها سوى كلمات عابرة ، تأثرت بها لغتنا . .

مثل أفندم . . حاظر التى ننطقها حاضر . . وتصاوير أى تصوير وهفا ، يعنى هواء وقرة قول التى كنا نطلقها حتى وقت قريب على قسم البوليس . . ولاتزال الكلمة شائعة فى الاسكندرية وإن كانت تنطق كراكون .

كل ذلك كان لابد أن يفزعنى ، ويشعرنى بالخوف ، الذى كان يقترب أحيانا من حد التوتر ، وكان يصيبنى بالقشعريرة .

وتحولت هذه الأحاسيس إلى وحش كاسر ، هاجم معدتى وأمعائى بشراسة . . تحولت إلى تنين يقذف بلهب «الحموضة» فيشعل النيران فى جدران جهازى الهضمى التى لا تحتمل الانفعالات الحادة ولا الانفعالات الفجائية . . وكان أن أحسست بآلام الحريق التى تجعلنى أصرخ من القرحة التى كانت حتى ذلك الوقت قرحة رقيقة مهذبة .

وقدموا لى قرصا أبيض مضادا للحموضة .

وأعترف أننى ترددت فى تناوله فشجعنى الضابط ، بتناول قرص آخر من نفس العلبة ، بعد أن قرأ ما جال بخاطرى .

وتحولت هذه الأحاسيس إلى هواجس كادت أن تحطم ما تبقى فى رأسى من أبراج العقل ، والاتزان . . السجن . . التعذيب . . تلفيق قضية . . التشهير . . تشويه السمعة . . فياما فى الحبس مظاليم ، ولماذا لا تأتى «الطوبة فى المعطوبة» وندفع ثمن جريمة لم نركتبها . . ترى هل يمكن أن يصدق أحد أننا أبرياء لو اتهمونا بالتجسس ، ولم نقدر على الدفاع عن أنفسنا ؟ .

ولا أعرف ما الذى جعلنى أتذكر فى ذلك الوقت بالذات فيلم «قطار منتصف الليل السريع» الذى يروى قصة شاب فرنسى ، قُبض عليه فى أسطنبول ، بتهمة جلب المخدرات ، وبعد المحاكمة حكموا عليه بالسجن . . والسجن هنا قهر وإضطهاد وعذاب .. منفى للعقل والكرامة والانسانية . . وفى السجن عاش سنوات أسود من قرن الخروب . . أسود من شعر رأسى لا شعر رأسه لأنه أشقر . . وفشلت الرشوة ، والدبلوماسية ، والوساطة فى إنقاذه . .

أيقنت أن مصيرنا أسوأ . .
فتهمتنا ليست الحشيش وإنما التجسس . .
وظروف البلاد ليست عادية وإنما استثنائية . .

ولا حجة لنا . . فكل مظاهر الحياة تؤكد أن أنقرة تحت الطوارىء . . ويسيطر عليها الجنرالات والمدرعات . . فالشوارع تمتلىء بالجنود والجنود يشهرون السلاح . . والأوامر إطلاق النيران عند أى اشتباه . . والدبابات تحتل الميادين وتسد الطرق . . ومعظم الصحف

معطلة . . إلا الصحف الموالية وصحف الفن والمجتمع وسباق الخيل ، وسباق الكلاب . . والسلطة العليا فى يد جنرال . . والبنك المركزى والتليفزيون أيضا . والمعارضة لا صوت لها . . والأحزاب لا نشاط لها . . والحياة باردة على السطح . . تنافس برودة وجليد شهر يناير . . أما الأعماق فتغلى برغبة شديدة بعودة الحياة إلى طبيعتها . . والعسكر إلى ثكانهم .

وبقينا إلى منتصف الليل على أعصابنا . .

ومن حسن الحظ أن الكاتب الصحفى الشهير صلاح حافظ كان معنا فى الرحلة لكنه لم يكن معنا فى المصيبة . . فضل البقاء فى الفندق هربا من الجليد الذى يملأ الشوارع ، والبرودة التى تجمد المفاصل ، ودرجة الحرارة التى تحت الصفر بكثير واتصلنا به تليفونيا . . قلت له :

ـ الحقنا . . إنهم يتصورون أننا جواسيس .

ويبدو أنه اعتقد أننى أمزح ، فرد بسخرية :

ـ ولماذا تكلمنى الآن إنهم سيقبضون على بتهمة زعامة الشبكة بعد هذه المكالمة . . لقد كشفتنى .

ـ صدقنى المسألة جد .

ـ جد . . كيف ؟

ولابد إنه صدق هذه المرة ، ولابد أنه قفز من الفراش ، ولابد أنه فزع !

وسألنى بجدية :

ـ أين أنتما الآن ؟

ـ أغلب الظن أننا فى وزارة الداخلية !

ـ لا تنزعج . . سأسوى المسألة حالا !

وراح صلاح حافظ ـ الذى كان على موعد رئيس الحكومة صباح اليوم التالى ـ يجرى اتصالات بمكتبه وانزعج طاقم المكتب وانزعج رئيس الحكومة وبحثوا عن حاكم العاصمة العسكرى وكان الرجل فى فراشه ، مصابا بأنفلونزا حادة ودرجة حرارته تقترب من الأربعين . . وأيقظوه من نومه . . وبصعوبة شديدة أمسك بالتليفون ، وأمر بإطلاق سراحنا . . ولا يهم بعد ذلك ما جرى له . .

أخيرا . .

وصل مسئول من وزارة الاعلام وتولى تسوية الموضوع ، وأزال سوء التفاهم . .

خرجنا إلى الشارع بدون حرس ولا بنادق ولا سركى . . تنفسنا الصعداء . . لم نصدق أن الكابوس قد إنزاح . . وقررنا بلا تردد العودة إلى القاهرة فورا . . فليس صحيح أن كل مرة تسلم الجرة . . والمؤمن لا يُلذغ من جحر مرتين . . والعاقل من إتعظ من أول مرة .

أن كل ذلك جرى لنا فى اليوم الأول . . فماذا سيجرى لنا فى الأيام التالية ؟ . . وكل ذلك جرى لنا فى العاصمة ، حيث الاتصال سهل ، والسلطة قريبة ، فماذا سيجرى لنا فى المدن الأخرى والبعيدة ؟ .

لا . . لا . . لابد من العودة إلى القاهرة . . حتى ولو لم تكن هناك طائرة مباشرة ، فأنا الآن مستعد للعودة إلى القاهرة ولو عن طريق رأس الرجاء الصالح .

وعدنا إلى الفندق . .

وسألنا الموظفون والخدم والزبائن ، ماذا حدث ؟

واكتشفت أننا أصبحنا حديث الناس فى أنقرة . . وربما فى تركيا كلها . . ومن يدرى لعلنا أصبحنا من وجهة نظر المعارضة أبطالا . . رغم أنوفنا . . فيكفى فى العالم الثالث ، وتحت حكم العسكر أن يُقبض عليك حتى تصبح بطلا . . أو مناضلا . . هذه قاعدة . . وتجارة رائجة أيضا .

واكتشفت أن الناس فى ظل الحكم العسكرى تعرف كل شىء مع أن الصحافة مكممة والتليفزيون أخرس ، والاذاعة بنصف لسان . . لكن ذلك لا يمنع الهمس . .

. . والهمس يحتاج إلى آذان كبيرة وشفاه صغيرة، وإن كان رغم ذلك يصبح مثل رصاص دمدم . . قطع من البلاستيك ، تنطلق من الأفواه فترشق فى جسد الجنرالات ، ولا تخرج أبدا .

ورصاص دمدم الذى تحرمه الديكتاتورية العسكرية . . نقل الحقائق ، وصياغة النكات اللاذعة ، ونشر أخبار الارهاب ، والاعتقال ، والقسوة والفضائح .

واكتشفت أن الحكم العسكرى ومهما كان قويا فهو ضعيف . . ومهما كان عملاقا فهو قزم . . ومهما كان جبارا فهو مهزوم ، ومهما كان شرسا فهو مرتعش . . إن كاميرا فى يدى مصور صحفى فنان أراد أن يصور الشمس قبل الغروب يمكن أن تسبب كل هذا الارتباك ، والقلق ، والذعر ، ويمكنَ أن تقيم الدنيا ولا تقعدها ، ويمكن أن تُفزع الجنرالات ، وتُفقدهم القدرة على التمييز بين الصحفى والجاسوس . . فالكل عندهم مجرم حتى يثبت العكس . . وتحت دعوى الأمن والنظام لا مانع عندهم أن تمتلىء السجون بالأبرياء الذين بهرتهم ألوان الطيف .

دخلنا الفندق ، فإذا بالاتراك المدنيين يستقبلوننا بزفة . . وفرح . . تطوع أحدهم ليأخذ معطفى ، وتطوع آخر بتقديم سيجارة ، وتطوع ثالث بتقديم كوب من عصير التفاح الذى يعتقد الاتراك أنه يهدىء الأعصاب ، وينقى الدم من الغضب .

وقبل أن أصعد إلى حجرتى وأرتب حقيبتى ، استعداد للعودة إلى القاهرة ، دخل من بوابة الفندق خمسة رجال تصورت أنهم رجال أمن ، فاتضح أنهم من وزارة الإعلام . . جاءوا يحملون كل ما يقدرون على حمله من اعتذار وأسف . . وندم .

وقبل أن يفرغوا من مهمتم ، هبوا فجأة كأن كتيبة من العقارب لدغتهم . . قاموا ليقفوا فى وضع الأدب . . أحنوا رؤوسهم وكفوا عن التنفس ، وزرروا جاكتتاتهم . . كأنهم مثل موظف فى أرشيف وزارة التموين فأجأه السيد الوزير . .

ورحت أفتش فيما حولى عن سر هذا الموقف . . وعرفت أن شخصية هامة دخلت الفندق . . فهناك من يجرى . . وهناك من يهمس . . وهناك من يفسح الطريق . . مشهد ليس غريبا على ذاكرتى . . كأننا فى مصر لا فى تركيا . . فهل أصول الأدب والنفاق الوظيفى فى مصر مسئول عنها الاتراك الذين حكمونا عشرات السنين ؟ . . أغلب الظن أن ذلك صحيح .

«الوزير جاى» .

هكذا عرفت بسهولة . . وزير الاعلام جاء بنفسه ليعتذر عما حدث . . ولأننى كنت لا أزال غاضبا فقد تعاملت مع الموكب ببرود . . وتعاملت مع الوزير نفسه بجفاء .

قلت له :

أننا لم نر مبنى القيادة أصلا . . ولو كنا قد رأيناه ما تصورنا أهميته ، فنحن لا نعرف اللغة التركية والمبنى مثل أى مبنى آخر فى أنقرة ، والجنود الذين يقفون أمامه بالسلاح ، ستجد أمثالهم يقفون بنفس السلاح أمام باقى المبانى . . البنوك ، والملاهى ، والمصانع . . وحتى ذلك الفندق الذى نجلس فيه الآن . . إن الجيش عندما يحتل مدينة لا يستطيع أن يفرق بين مبانى الجامعة ، ومبانى أجهزة الأمن . . ولا بين محطات الاتوبيس والثكنات . . وإذا كنا قد أخطأنا لأننا جئنا إلى تركيا وهى تحت حكم الجنرالات ، فنحن نعتذر عن هذه الجريمة وسنصلح الخطأ ، ونغادرها فورا . . وربما نعود بعد أن يختفى الجنود ، وينتهى حكم

الجنرالات وربما لا نعود مهما تحسنت الظروف . . فالتجربة كانت مرة . .

وابتلع الوزير كلامى بصعوبة . . ولابد أن بعض الجمل وقفت فى الـزور . . والـبعض الآخـر نزل إلى المعـدة لكن كان من الصعب هضمـه . . فكـلامى كان يحمـل كل إهانة مباشرة ـ دون أن أقصد ـ للوزير . . فهو قبل أن يصبح وزيرا كان ضابطا . . وتمنيت أن أسأله عن العلاقة بين الجنرالات والاعلام . . ولكننى تراجعت ، حتى لا يرد على سؤالى فى سخرية ويقول : أسأل نفسك : فنحن أيضا فى مصر جعلنا العسكر وزراء للاعلام ، وللسياحة وللصناعة . . بل انهم وقت أن كان المشير عبدالحكيم عامر الفتى المدلل للعسكرية المصرية ، كان العسكر يشرفـون على تسيير اتـوبيسات النقل العام ، وعلى الكرة ، ومباريات الدورى العام ، وفلاحة الأرض ، وحل المشاكل الزوجية .

الحال من بعضه إذن . . ولا تعايرنى ولا أعايرك ، الهم طايلنى وطايلك .

قال الوزير :

ـ عندك حق . . لكننا مصرون على إزالة سوء التفاهم الذى وقع . . ولا تنس أنك صحفى . . لا تنس أنك أكثر خلق الله دراية بأن كل بلد لها ظروفها ولها تعليماتها فى التعامل مع كاميرا الأجانب والغرباء . . فقد تبتسم لك ، فى فرنسا ، الفتاة التى تصوب إليها الكاميرا ، وتقول لك

فى دلال وأنوثة : «مرسى» بينما يكون جزاؤك فى بلد آخر علقة ساخنة لا تنساها طول حياتك .

واحمد ربنا إنك صحفى تمتلك حين تتورط ، أن تستغيث بوزارة الاعلام ، لأن السائح العادي لن ينفعه ، فيما أعتقد ، أن يستغيث بوزارة السياحة .

وقبلت اعتذار الوزير .
وانفرجت الأسارير . .
وبقيت فى تركيا . .
لكننى لم أنس طوال الرحلة المصيبة التى سأقع فيها .

وطوال الرحلة تحول هذا الحادث إلى عقده مزمنة . . كنا قبل أن نصوب الكاميرا على أى شيء نسأل ونستقصى ، ونستأذن . . الجندى ، والشرطى ، والمارة . . ولابد أن ذلك كان يثير الدهشة والاستغراب ، وربما السخرية . . وكنا نبتعد بقدر الامكان عن تصوير أى شيء تقف بجانبه دبابة ، أو سيارة عسكرية ، أو مجموعة جنود . . حتى ولو كان هذا الشيء تمثالا فى ميدان . . أو محل لعب أطفال . . أو مطعما يبيع الشاورمة والبقلاوة . .

وكانت الحكمة التى تترود على أفواهنا دائما ، طوال الرحلة ، وحتى عدنا إلى القاهرة ذلك المثل الشعبى ، خفيف الظل ، الذى يقول :
اللى يتلسع من الشوربة ، ينفخ فى الزبادى .

وعندما رويت ما جرى إلى أستاذ فى التاريخ الاسلامى فى جامعة

أنقـرة ، رد على روايتى بنكتـة تقول . . أن جنرالا تولى حكم ، تركيا طلب من المخابرات أن تأتى له بأفضل أستاذ فى اللغة الانجليزية . . لكنه خجل أن يذكر لهم السبب ، وهو أن ابنه ضعيف فى هذه اللغة ، ومـرت فترة ، ولم يصل الأستاذ ، فعاد الجنرال يسأل المخابرات عنه ، فقالوا له : لقد قبضنا عليه واعترف وأعدم .

ضحكت . . لكن ضحكتى كانت مجاملة ، ولم أشأ أن أقول له : «قديمة» . . فنحن أصحابها .

بهلوان على جليد أنقرة !

نحن أبناء البحر الأبيض «المتوسط» نؤمن بأن خير الأمور الوسط .

نفضـــل أن نعيش «وسط النـاس» . . ولا نفـرق بين إعـرابى ، وأعجمى إلا بالمعاشرة . . نقوم بالوساطة بين المتخاصين ، والمتحابين ، ونهوى توفيق الرؤوس فى الحلال .

مزاجنا معتدل . . أى متوسط . . غير متطرف . . والطقس الذى نعيش فيه أيضا . . لذلك فنحن نصف الحبيب بالجو . فهل السبب أن الحبيب هو بالنسبة لنا نسمة صيف طرية . . ودفء يخفف من قسوة البرد فى الشتاء ؟!

ولو وصف الاسكيمو الحبيب بالجو لكان الحب جليد ، والعواطف مجمّدة تحت الصفر . ولو وصف الأستوائيون الحبيب بالجو لكان الحب حارا جدا فى الصباح ، باردا جدا فى الليل ، ولعنات تنهمر مع سيول الأمطار .

ولأنها عادة أن نحرك أيدينا مع الشفاه ، ونحن نتكلم ، فقد نبدو للآخرين أننا متحمسون أكثر من اللازم لما نقوله . . ولأن من أشهر خصالنا المبالغة فإن الآخرين لا يصدقوننا كثيرا . . فنحن إذا ما ارتفعت الحرارة فى الصيف درجة أو درجتين عند معدلها ، قلنا أننا سنفطس من الحر . . ونحن إذا ما انخفضت درجة الحرارة فى الشتاء درجة أو درجتين عن معدلها ، قلنا أننا سنموت من البرد .

ولا يمكن أن نكتشف موهبتنا فى المبالغة إلا إذا سافرنا إلى منطقة أخرى بعيدة . . فالحر الذى نقول أننا سنفطس منه يصبح مثل هواء جهاز التكييف البارد فى القرن الأفريقى . . والبرد الذى نقول أننا سنموت ونُجمد بسببه ، يصبح مثل الهواء الدافىء فى بلد مثل تركيا . . وخاصة فى عاصمتها أنقرة .

فأنقرة تقع على ربوة مرتفعة ، وتقترب أكثر من غيرها من السماء ، لذلك فالجليد يطولها أسرع والبرد فى الشتاء يكون من نصيبها أكثر . . وأنقرة كانت مدينة مجهولة ومهجورة قبل أن يبرز كمال أتاتورك . . كانت استنبول هى العاصمة . . عاصمة تركيا وعاصمة الدولة العثمانية . . وعندما سقطت الخلافة (١٩٢٣) ، وقرر أتاتورك بناء تركيا الحديثة ، فضل أن يحكم من عاصمة أخرى . . واختار أنقرة . . وكان اختياره لأسباب عسكرية . . فهى تقع على هضبة مرتفعة فى قلب الأناضول (٣٠٠٠ قدم أو ٩٠٠ متر فوق سطح البحر) ويصعب على الغزاة اقتحامها . . ولم يهتم أتاتورك بأى شىء آخر . . لا الطقس الردىء . .

ولا الموارد الضعيفة ولا الأمطار النادرة . . ولا حتى بقرب أنقرة من مدينة أخـرى سيئة السمعة هى مدينة «أفيون» ، أول من زرعت الأفيون ، وسمى على اسمها .

وأتـــاتـــورك ليس أول قائـد عسكـرى يختـار عاصمـة بلاده بهذا المنـطق . . فكـل العسكر اختاروا العواصم وعيونهم فقط على الدفاع عنها . . فعمرو بن العاص عندما فتح مصر ، اختار «الفسطاط» حتى أصبحت «القاهرة» لتصبح العاصمة ، مع أن الاسكندرية أفضل . . الطقس جميل . . والاتصال مع العالم أسرع . . وعلاقة المدينة بالحضارة والثقافة أعمق وأقدم . . ثم انها كانت العاصمة من قبل ، ومن أشهر موانىء البحر المتوسط . . وهى مدينة نظيفة ، أو من السهل أن تكون نظيفة ، لأنها غير محاصرة بالجبال ، مثل القاهرة ، التى تقع فى حضن جبل المقطم ، الذى يلقى على وجهها كل صباح الأتربة والغبار ، وخاصة واننا عجزنا عن تشجيره ، وزراعته بالأشجار التى تصد الرياح .

والخرطوم اختيرت عاصمة للسودان بهذا المنطق العسكرى أيضا . . وهى نار الله الموقدة فى الصيف وثروتها من الظل قليلة جدا .

ولأن الـــذين بنـوا مثـل هذه العـوَاصم لم يتـوقعـوا الانقـلابـات العسكرية ، وتصوروا أن الخطر من الخارج فقط . . فإن المميزات التى رصدوها قد أصبحت عيوبا . . فعندما قام جمال عبدالناصر بالثورة اختار عز الصعيف للتحرك . . كان الملك فاروق فى الاسكندرية هربا من حر

القاهرة ، وكانت معه الحكومة ، وقيادة الجيش . . وكانت العاصمة بلا مسئول يملك القدرة على المواجهة تقريبا . . وكان أقصى ما فعله وزير الداخلية هو الاتصال تليفونيا باللواء محمد نجيب ، ليطلب منه أن يلم أولاده الضباط ويحكمهم .

واختار الرئيس السودانى الأسبق جعفر نميرى شهر مايو ليقوم بانقلابه الذى استولى بعده على السلطة . . ومايو شهر «السخونة» كما يقول السودانيون . . شهر الحر والكسل والقيظ ، وعدم القدرة على الإعتراض أو المقاومة أو حتى الخروج من البيت للفرجة .

وقد تعلم نميرى الدرس ، وأصبح أكثر حذرا فى الصيف . . لكنه لم يتعلم درسا آخر ، هو أن «سخونة» الشعب ! لا تسكت عن الديكتاتورية . . لذلك لم يسقط بسبب «سخونة» الصيف وإنما بسبب «سخونة» الشعب .

هبطت الطائرة مطار أنقرة . [illegible] أن قائدها كان بارعا وهو يهبط بها سالمة على أرض المطار . . فالجليد يغطى كل [illegible] . . وأى انحراف بسيط عن ممر الهبوط ، كان سيزحلق الطائرة على الفور ، ثم . . كان من الطبيعى أن تتحطم ثم تنفجر ، وتشعل فيها وفينا النيران ، وساعتها فقط يمكن أن يذوب الجليد .

درجة الحرارة خارج الطائرة ٧ تحت الصفر . . الثلوج تبدو كطبقة من الشمع الأبيض على الأرض ، والأسطح ، وأغطية رأس العمال . .

البـذلـة ، والبـالطو ، والبلوفر الصوف والملابس الداخلية الثقيلة التى وضعتها على جسمى ، أو وضعت جسمى فيها لم تحمنى من الإحساس بأننى فى «فريزر» . . أو اننى مثل دجاجة مذبوحة على وشك التجمد . . أطرافى لا أشعر بها . . لا أقدر على السيطرة عليها . إن الجحيم ليس نارا فقط وإنما هو جليد أيضا !

وبـمجـرد أن مشـيت بثقـة على أرض المـطـار المغـطـاة بالجليد أحسست أننى مثل البهلوان الذى يمشى على الزجاج الأملس . . أو البـلاستيك المغـطى بالشحم . . وأكثر من مرة كدت أطير فى الهواء ، وأهوى على الأرض . . أكثر من مرة كدت أتزحلق وأقع على ظهرى لولا ستر ربنا . . ولولا أننى بدأت أمشى على طريقة مرضى البواسير .

وعندما شعر رجل تركى ، كان يسير إلى جانبى ، أننى لا أملك موهبة العمل فى السيرك ولا حفظ توازنى على الجليد ، نصحنى أن أمشى على مهل . . مثل العجائز ، والسلحفاة والطفل الذى يحبو . بصراحة أكثر نصحنى أن أمشى وكأننى أمشى على قشر بيض .

ولأننى من الذين يؤمنون بإيقاع الحياة السريع ، عجزت عن الأخذ بالنصيحة فلم يجد الرجل التركى مفرا من أن يمسك بذراعى ، حتى دخلنا صالة الوصول ، ومن جانبى تغاضيت عن الابتسامة الساخرة التى ارتسمت على وجهه .

فى صالة الجمارك . . ونحن ننتظر تشريف الموظف المختص ، قال الرجل :

ـ احمد ربنا . . فالجو هذه الأيام بديع !
ـ أفندم . .
ـ نعم . . الجو بديع !

جليد . . وبرد . . ومطر ، ويقول الرجل : آن الجو بديع . . الم أقل لكم أننا نبالغ عندما نقول فى الشتاء أننا سنموت من البرد . .وأين هى الحلوة سعاد حسنى لترقص وتغنى ، وتقفز ، وتملأ الدنيا حيوية وبهجة ، وهى تقول : الدنيا ربيع والجو بديع . . قفل لى على كل المواضيع .

قلت للرجل :
ـ طب قفل . . قفل !
ولم يفهم النكتة . . وأضاف :
ـ درجة الحرارة قبل اسبوع كانت ١٤ تحت الصفر . . وهبت عاصفة جليدية أدت إلى إغلاق المطارات والموانىء ، ومنعت الناس من الخروج من بيوتهم . . وأذاعت الحكومة أن أربعة أشخاص ماتوا من البرد . . تجمدوا فى أماكنهم .

ـ ربنا يطمئنك . . وتفتكر ممكن العاصفة الجليدية تهب مرة أخرى هذه الأيام ؟

ـ والله كل شىء جائز . . ونحن هنا نقول أن عواصف الجليد فى الشتاء ، مثل عواطف القلب فى الربيع ، لا يعرف أحد متى تهب !

جاء موظف الجمارك ، وجاء معه ثلاثة جنود يحملون السلاح . . الحكم العسكرى يستقبلنى من المطار . . وقلب الرجل حقيبتى فى غيظ . . كأنه كان يفتش عن قنابل أو منشورات ، أو زجاجة مولوتوف . . أو أى شىء آخر لا أعرفه . . وشعرت أن هناك تار بايت بينى وبينه . . ربما قتل جدى ، جده عندما كان الأتراك يحكمون مصر . . ربما . .

ـ ماهذا !

ـ كتاب !

ـ عن أى شىء ؟

ـ رواية اسمها «زينب والعرش» لكاتب مصرى شهير اسمه فتحى غانم !

ـ هل هى رواية سياسية !

ـ ممكن !

ـ اكتبها فى الاقرار الجمركى ، حتى نضمن أن تخرج بها ، ولا تتركها لأحد هنا . . ! وهذا الكتاب ؟

ـ كتاب مترجم عن الحرب الباردة بين الشرق والغرب !

ـ ممنوع مثل هذا الكتاب . . لابد من مصادرته !

ـ لكن . .

ـ تفضل !

كان على أن أعيد ترتيب حقيبتى ، التى لم يفتشها مأمور جمرك ، وإنما مأمور قسم بوليس . . لقد سافرت معى هذه الحقيبة كثيرا من دول

العالم ، لكن لم يحدث لها ما حدث فى مطار أنقرة . . لم تعامل من قبل معاملة حقائب المخدرات ، والديناميت مثل هذه المرة .

وخرجت من المطار إلى الفندق . .

المدينة من نافذة سيارة التاكسى وجهها شاحب من الجليد ، والدموع على خديها من شدة الخوف على نفسها بسبب الحكم العسكرى ، وبسبب الأمطار . . وعلى الطريق خضرة ، وأزهار . . وحقول ، وجبال ، وأكواخ ، وبيوت جميلة . . لكنك لا تشعر بهذا الجمال ، لأن الدبابات وَالمدرعات وناقلات الجنود العملاقة تسحب مثل هذا الاحساس . . وتضع بدلا منه إحساسا بالقلق ، والتوتر ، والترقب . . كأن هناك مصيبة لابد أن تحدث . . كأن هناك انفجارا لابد أن يقع . . كأن هناك رصاصات ستطلق ، وضحايا سيسقطون . . إن الحكم العسكرى يضعك فى حالة دائمة من توقع البلاء قبل وقوعه . . وغالبا ما يقع هذا البلاء .

سائق التاكسى صامت . . كأنه فى مقبرة . . يقود سيارته وكأن فى ظهره مدفع رشاش ينظر أمامه وكأنه ممنوع من النظر حوله . . وممنوع من التحدث مع الزبائن . . وممنوع أن يأخذ منهم سيجارة . . إنسان آلى مبرمج على مهمة وحيدة ، محددة ، لا يمكن الخروج عنها . . ولابد أن السبب حالة الطوارىء التى تعيشها البلاد والتى حولت البشر إلى ماكينات .

الفندق اسمه أنقرة ـ جراند أوتيل .

فندق فخم ، مرتفع الأدوار والأسعار . . من أعلى مبانى وسط المدينة . . ترى من مطعمه العلوى «بانوراما» أنقرة تحت الجليد . . أحواض السباحة مجمدة كأنها قالب ثلج أخرجته من فريزر ضخم . . مقاعد الحدائق لا يجلس عليها البشر وإنما كتل الجليد . . أسقف المنازل ، وأوراق الشجر ، وأرصفة الشوارع مغطاة بالجليد . . وأيضا السيارات التى لم يستخدمها أصحابها منذ ساعات . . أما السيارات التى تتحرك وتسير على الطرق ، فعلى مقدمتها وضع أصحابها ألواحا من الكرتون ، حتى لا يتسرب الصقيع إليها ، ويتجمد الزيت فى الموتورات .

ومن النادر أن تجد فى أنقرة مبانى مرتفعة . . فى أنقرة كلها عدد محدود ، يعد على أصابع اليد من المبانى المرتفعة . . ولماذا الارتفاع وأنقرة على أرض مرتفعة؟ لماذا الارتفاع ، وأنقرة تعيش فى الجليد ؟

والجليد ليس وحده السبب . . هناك أيضا قبر كمال أتاتورك الذى يرتفع عن أى شىء فى أنقرة ، ولا يجوز أن يرتفع بناء آخر عنه .

أعلى مبنى فى أنقرة هو مبنى «بنك العمل» ، وهو يرتفع عن الأرض بـ ٢٣ دورا . . لكنه رغم ذلك أقل ارتفاعا من المكان الذى يقع فيه قبر أتاتورك . . فقبر أتاتورك يقع فى أعلى مكان فى أنقرة . . أما أعلى مكان فى تركيا فقمة أرارات الجبلية - ١٦٩٤٥ قدما . . أو ٥١٦٥ مترا .

إن أنقرة تقع على أعلى هضبة فى تركيا . . وقبر أتاتورك يقع على أعلى

هضبة فى أنقرة . . يقع فى منطقة تسمى «أنوت تبة» أو تبة «أنوت» . . وتبة يعنى هضبة . . ونحن لا نزال نستخدم الكلمة فى ميادين التدريب على الرماية . .

والصعود إلى «أنوت تبة» فى هذا الصقيع عذاب . . فهناك حدود غير مسموح للسيارة بتجاوزها . . ثم . . هناك عشرات من الدرجات الرخامية يجب أن تصعدها على قدميك حتى تصل إلى المقبرة . . وقد فعلت وتحملت . . فمقبرة أتاتورك أشهر معالم أنقرة . . ولابد من الفرجة عليها حتى لو أصبحت أنقرة قطعة من القطب الشمالى . . وكان علىّ أن أتحمل المزيد من الصقيع وأصعد بهدوء . . لأن الموت من البرد أهون من الانزلاق ، والتدحرج ، وكسر العمود الفقرى .

والمقبرة ضخمة . . بُنيت على الطراز البيزنطى ، وتطل على أنقرة من جميع الجهات . . وتستطيع أن ترى كل شبر فى أنقرة وأنت واقف هنا . . فهل هذا مقصود حتى يظل أتاتورك شاخصا ولو بجثمانه إلى المدينة التى اختارها لتكون عاصمة بلاده الحديثة ، بعد أن قضى على السلاطين الأتراك ، وغير مسار عجلة التاريخ .

وقد اختار أتاتورك أنقرة ـ كما قلت ـ بعيون القائد العسكرى ، ولم يخطر على باله طبعا أن فنون القتال ستتطور ، ويخترع العلم الطائرة النفاثة ، والصواريخ عابرة القارات ، والقنابل الذرية ، التى لا يقف أمامها حصن أو قلعة ، أو ربوة ، أو تبة .

وكان إن أحس الأتراك ـ مع الزمن ـ أن الميزة التى تحملوا فى سبيلها كل عيوب أنقرة لم يعد لها وجود . . ضاعت الميزة ، وبقيت العيوب . . الجليد . . الجبال . . ثقل الظل . . صعوبة الحياة . . ولكن . . لأنهم يحبون أتاتورك لم يهجروا أنقرة كعاصمة ، وأبقوا عليها . . ومن الحب ما جمد الدم فى العروق . . ومن الحب ما جاء بالروماتيزم .

لا تزال أنقرة هى العاصمة من أجل الحفاظ على ذكرى أتاتورك .

فيها القصر الجمهورى الذى يقع بالقرب من قبر أتاتورك ، فى منطقة تسمى «شنكاياى» . . وفيها السفارات الأجنبية التى تقع بالقرب من وسط المدينة فى منطقة تسمى «قواقلى درا» . . وعدد سكانها لايزيد على ٣,٥ مليون نسمة . . أغلبهم موظفون وتجار ، وعمال ، ورجال أعمال ، وطلبة . . ومن النادر أن تجد فيها أجانب وسياحا ، اللهم إلا أعضاء البعثات الدبلوماسية ؛ والمجانين من الصحافيين أمثالى .

وعدد سكان أنقرة مثل عدد سكان استنبول ، بدون السياح ، الذين يصل عددهم فى الصيف إلى ٣ ملايين سائح على الأقل .

والأتراك شعب غريب . . متناقض . . قاسي القلب مع خصومه ، شديد الوفاء والإخلاص لمن يحبه من قادته . . إن الشعب الذى ذبح شعوبا أخرى يحترم أتاتورك إلى حد التقديس . . إن أتاتورك بالنسبة للأتراك هو الزعيم «الخالد» . والأتراك يعنون ذلك . . ولا يقولونه من باب النفاق للحاكم ، فإذا ما مات رجموه بالطوب والكلمات . . كما فعلنا نحن مع حكامنا .

لو مشيت فى الشوارع والميادين ستجد تمثالا لأتاتورك . . تمثالا يمثله وهو واقف على قدميه . . وتمثالا يمثله وهو على ظهر حصان . . وتمثالا نصفيا . . وتمثالا يصوره وسط جماهير الشعب .

ولو دخلت أى مكتب أو مصلحة حكومية ، أو جامعة ، أو مدرسة ، أو مسرح ، أو دار سينما ، أو مكتبة عامة فستجد صورة له . فهو الرئيس الدائم ، أمس ، واليوم ، وربما غدا . . وكل من جاء بعده ، حتى الآن لم ينزع الصورة ، ولم يستبدلها بصورته ، وكل من جاء بعده وحتى الآن مشى على طريقه بالفعل ، لا بالكلام ولا بأستيكة .

ولو تسكعت بجانب أى دار نشر فستجد كتابا عنه . . عن حياته . . كفاحه . . أقواله . . وغرامياته . .

لا هم حطموا تماثيله بعد أن مات . . ولا هم داسوا صورته بالأقدام . . لاهم شوهوا تاريخه بعد أن رحل ، ولا هم لعنوه ، أو اتهموه فى ذمته . .

منتهى الاخلاص ، ، والوفاء ، والتقدير . . والاحترام أيضا . . رغم أن بعض الأتراك لا يحبونه . . ويرون أنه كان من الممكن أن يحقق لتركيا الكثير دون أن يفعل برجال الدين ما فعل . . وكل الذين يبكون على الخلافة العثمانية داخل وخارج تركيا هم الذين يهاجمون أتاتورك . . وهؤلاء خارج تركيا أكثر . . والهجوم على أتاتورك لا يخلو من التشهير ، والطعن من الخلف . . والخنجر المستخدم حاد النصل . . مسمم . .

فهم يدعون أنه من يهود «الدونمة» . . وإن هذا هو سر انقلابه على دولة الخلافة . . والقضاء عليها . . وليس فى كتب التاريخ دليل واحد ، على صحة هذا الادعاء .

ويهود الدونمة ، طائفة من اليهود تتبع يهودى اسمه «ساباتى زفى» . . ولد فى أزمير عام ١٦٢٦ . . أسرته أسبانية الأصل . . والده كان سمسارا ، حاول أن يعلم ابنه التجارة ، ولكن الابن كان يسعى إلى أن يكون حاخاما .

فى ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية أمبراطورية كبرى ، تستولى على دول كثيرة منها اليونان ، وكريت ، وبولونيا ، وجزء من روسيا ، ومعظم الدول العربية ، وتشيكوسلوفاكيا ، وبلغاريا . . لكن فى نفس الوقت كانت الدولة العثمانية تسير بخطى مسرعة نحو الانهيار بسبب الصراعات الداخلية على السلطة . . أو على السلطنة . . أو على لقب «الصدر الأعظم» . . انقلابات . . اغتيالات . . مؤامرات . . وانقسامات . . أدت إلى فشل العثمانيين فى الاستيلاء على فيينا ، بعد محاولتين . . ولأن الفشل الأول هو الفشل الأكبر . . راحت الدوائر تدور فى الاتجاه المضاد .

فى نفس الوقت أيضا ، كان اليهود يتعرضون لاضطهاد شديد ، بعد أن زادت شوكة المذهب البروتستنتى فى أوروبا . . فهام اليهود على وجوههم ، وتشتتوا فى دول كثيرة كان منها تركيا . . والبلاد التابعة لسلطانها .

وانكب ساباتاى على دراسة التلمود والتوراة ، واكتشف أن لكل حرف من حروف اللغة العبرية القديمة رقما يقابله . . وبحساب بعض الكلمات فى التوراة ، استخرج أن المسيح المنتظر الذى سُيخلص اليهود من تشردهم ، سيظهر فى سنة ١٦٤٨ . . وقرر ساباتى أن يكون هو هذا المسيح . . وأعلن الصيام الدائم . . ولم يكن يكف عن الاستحمام . . ورفض أن يمس زوجته حتى طلقها .

وعندما جاء العام المرتقب ، أشاع فى أزمير أنه المسيح المنتظر ، والمذهل إنه وجد من يصدقه ، رغم أن عمره وقتها كان **٢٢** سنة . . واغتاظ الحاخام الأكبر فى أزمير وحاول أن يعيد ساباتى إلى صوابه لكنه فشل . . ومن جانبه وجد ساباتى أن من الأفضل ترك أزمير والسفر إلى استنبول .

فى استنبول وجد ساباتى حاخاما دجالا يحترف تزوير الوثائق اسمه «واسينى» زوّر له رسالة قديمة من مزامير سليمان تؤكد إنه المخلص . . ونجحت الخدعة . . ووجد ساباتى أتباعا بالمئات . . جمع بعضهم فى سفينة ليسافروا إلى فلسطين . . لكنه فى منتصف الطريق غير رأيه واتجه إلى مصر . . وفى مصر جمع أموالا كثيرة من أغنياء اليهود وعندما عاد إلى أزمير قُبض عليه ، ونقلوه إلى استنبول ، وفى التحقيق أنكر أنه المسيح المنتظر . . وأمام الصدر الأعظم ، قيل له :

ـ إذا كنت المسيح المنتظر فأين معجزتك ؟

ـ اننى . . .

ـ نحن سنعطيك الفرصة . . سنخلع ملابسك ، وسنطلق عليك السهام ، فإذا لم تؤثر فى جسدك السهام اعترفنا بك !

ـ إننى أريد أن أعلن إسلامى ، هذه هى المعجزة .

فعلا . . أشهر ساباتى إسلامه ، وأصبح اسمه «محمد» أفندى ، وخصص السلطان له ريع وظيفة رئيس البوابين فى قصره .

اهتز أتباع ساباتى ، ولم يفهموا سر ما فعل . . لكنه قال لهم :

ـ ان الكتب اليهودية تقول أن المسلمين سيبتلعون المسيح المنتظر ، وها هى النبوءة تتحقق . . لقد جعلنى الله مسلما . . أنا أخوكم محمد البواب . . أمرنى ، وأطعته .

أطلق الأتراك على الذين قلدوا ساباتى ، أو محمد البواب ، يهود الدونمة . . أو يهود العودة . . أو يهود التوبة . . فالدونمة تعنى العودة أو التوبة .

ولكن الكلمة لا تعبر عن الحقيقة . . فقد ظل هؤلاء يؤمنون بأن ساباتى هو السيد والملك والمسيح والحق ، وبقى اسلامهم ، مثل مسيحهم بعيدا عن الصدق . . وان تسموا بأسماء المسلمين ، وحجوا إلى بيت الله الحرام ، وصاموا شهر رمضان ، واحتفلوا بالعيدين .

على أن هذه المظاهر لم تمنعهم من تأدية طقوسهم فى معابدهم الخاصة ، حتى بعد أن مات ساباتى فى سنة ١٦٧٥ عن ٤٩ عاما .

ومن طقوسهم الشهيرة عيد ٢٢ مارس . . أو عيد الربيع . .

ويُسمى عندهم عيد الخروف وهم يحتفلون به بعد الغروب ، حيث يلتقى عدد من الرجال بزوجاتهم ، بعد أن يأكلوا ، ويشربوا ، ويرقصوا ، ويغنوا ، تطفأ الأنوار فى منتصف الليل تماما . . ويختلط الرجال بالنساء فى الظلام ، والأولاد الذين يُولدون بعد ذلك يصبحون رجال دين !

والذين بكوا ، ولايزالون ، على سقوط الخلافة العثمانية ، ينسبون كل ما يرفضونه إلى هذه الطائفة التى تقف على السلالم . . العلمانية . . فصل الدين عن السياسة . . التبرج . . خروج المرأة للعمل . . اليسار . . الديمقراطية . . البرلمان . . النحت . . السينما . . إلخ .

كل الشرور ـ فى رأيهم ـ مصدرها يهود الدونمة .
وكل الأشرار ـ فى رأيهم ـ لابد أن ينتسبوا إلى يهود الدونمة .

ولأن أتاتورك هو الذى أجهز على الخلافة العثمانية ، فلابد أنه منهم . . لابد أنهم هم الذين صنعوه ، وساعدوه ، وأيدوه ، وساندوه . . ولابد أنهم هم الذين فكروا له ، وخططوا له ، وروجوا لما نفذه .

إنها أسهل وأبسط طرق الاغتيال ، والاعتداء ، المعنوى ، التشهير ! . . القتل بالكلمات المسمومة ! . . اعادة ذبح الموتى بسكين باردة . . اسمه «تشويه الحقائق» !

وماحدث مع أتاتورك ، حدث مع عبدالناصر . . قالوا : انه تربى مع اليهود وهو صبى صغير فى حى الخرنفش . . وقالوا : انه إتفق معهم

أثنـاء حصـار الفالوجة . . وقالوا : إنهم أرسلوا له أثناء ذلك صناديق التفاح والشيكولاتة .

نفس الذبح بنفس السكين . . نفس الاغتيال بنفس الكلمات الجارحة .

وأتاتورك له أخطاء ، وعبدالناصر أيضا . . والتاريخ كفيل بهما . . لكن . . من السـذاجـة أن نلعنهـما ونحن أحياء وهم موتى . . ومن السذاجة أن نتصور أن الشعوب تتأثر وتنفعل ، وتتحرك ، بمثل هذه الأساليب .

فالـذين شنعوا على عبدالناصر فوجئوا بأن الأجيال الشابة التى لم تعاصره هى التى تدافع عنه ، وتمشى على طريقه . . وتحلم بعودته .

والـذين شهروا بأتاتورك عاجزون عن تفسير كل الحب والاحترام والتقـدير الذى يلقاه حتى الآن . . فيوم مولده أجازة رسمية . . ويوم وفاته مناسبة حزينة تدفع الأتراك إلى زيارة قبره .

والأتراك يقولون : انه يستحق ذلك ، وأكثر فهو الذى أخذ بيد تركيا إلى شاطىء العصر وهو الذى فتح عينيها على لغة العلم ، والتكنولوجيا !!

لكن بعضهم يضيف :

ـ انه فعل ذلك بدون تفاهم ، وبقسوة ، وبدكتاتورية ، وبفرمانات تأخذ فى حسبانها طبائع البشر والأمور .

فقد فرض على تركيا القبعة وأجبرها على خلع العمامة . . جعلها تتخلص من الجلباب بقرار ، وترتدى الثياب الأوروبية بقرار آخر . . أصر على أن تهجر لغتها والحروف العربية وتستخدم الحروف اللاتينية . . لوى عنقها بعنف ليحولها من الشرق إلى الغرب . . وبالقوة أقنعها أن العلم بالنسبة لها هو أوروبا فقط .

إن أتاتورك هو الأب الروحي لتركيا الآن ، والأتراك يسمونه «الوالد» . . والوالد مكانة محترمة فى مجتمع لايزال يؤمن بالأسرة ، والعائلة .

وأتاتورك - واسمه بالكامل مصطفى كمال أتاتورك - ولد عام ١٨٨١ ، فى الحى التركى الفقير فى مدينة سالونيكا . . والده من أصل ألبانى مثل محمد على . . أمه من أصل مقدونى . . والأب كان موظفا صغيرا فى محل لبيع الأخشاب . . والأم كانت محافظة ، وأمية .

يوم ولد أتاتورك كانت تركيا فى حاجة إلى رجل قوى . . فالامبراطورية العثمانية كانت مجموعة من الشعوب المتخلفة ، يحكمها سلطان مستبد ، يبيع كل شىء بمقابل . . . الدخان فى يد فرنسا . . البنوك والطاقة فى يد الانجليز . . الرسوم الجمركية فى موانىء البحر الأسود فى يد روسيا . . النقل البرى فى يد الألمان . . الذين كانت لهم - أيضا الكلمة العليا فى الجيش .

خزائن السلطان فارغة . . الولايات تمزقت . . الفلاحون يموتون

جوعـا . . «الـرجـل المـريض» اشتـد عليه المرض ، وأحاط به الورثة الأوروبيون فى انتظار أن يلفظ أنفاسه الأخيرة .

فى سن المراهقة ، نضجت غرائز أتاتورك وشخصيته قبل الأوان . . تفوق فى الدراسة وانغمس فى مغامرات عاطفية مبكرة مع بنات الجيران .

كان أبـوه يؤهله لكى يخلفـه . . لكن أمـه كانت تريد أن يكمل تعليمه . . كانت تريد أن يكون واعظا . . أو حافظا بلغة الأتراك . . و«الحافظ» لقب دينى ، يطلق على حفظة القرآن . . وحامل اللقب ينال الاحترام والتقدير ، وحتى الآن ينبهر الأتراك بمن يحصل عليه . . وقد وجدنا الذين قابلناهم فى تركيا ، يتركون بيننا وبينهم مسافة من التعظيم كلما قدم صلاح «حـافظ» نفسـه ، أو قدمناه لهم نحن . . فهو حامل للقب ، ولابد أن ينال الشرف العظيم . . ولم يستثمر صلاح «حافظ» الـوضـع المميز الـذى وجـد نفسـه فيه . . فهـو فنـان . . ولبق . . ومتواضع . . وخفيف الظل . . يحب الحياة والناس . . وقادر على أن ينال كل الاعجاب بشخصه ، لا بلقبه .

مات والد مصطفى كمال أتاتورك فقيرا . . وكافحت الأم حتى أكمل تعليمه فى مدارس سالونيكا ثم فى المدرسة الحربية التى تخرج فيها ضابطا برتبة نقيب .

بعـد التخـرج كان يتردد على ناد يضم الثـوار والنـاخبـين اسمـه «فـاتـان» . . فى النـادى حماس ، ونقاش ، وبصاصون ، ومخبرون ، وذات مرة قال :

- «يجب أن نضع حدا لعاداتنا الآسيوية المتخلفة التى ترجع إلى العصور الوسطى .. يجب أن نعيش العصر .. إننا فى القرن العشرين» .

وقُبض عليه .

وكانت تلك العبارة هى كل برنامجه .

ورغم ذلك كان برنامجا خطرا .

إن تركيا كانت جزءا من الامبراطورية البيزنطية .. والامبراطورية البيزنطية كانت الوجه الشرقى المشرق من الحضارة الرومانية .. وقد سيطرت على أوروبا والشرق حوالى ١١ قرنا من الزمان بعد أن شاخت روما وضعفت ، وتعرضت لموجات متتالية من الفوضى حتى انتهت .. وعندما تولى الامبراطور قسطنطين الأكبر السلطة ، ولدت فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ بيزنطة وأصبحت عاصمتها القسطنطينية ، على الشاطىء الغربى للبوسفور .

فى عام ١٢٨٨ وصل الأتراك إلى بيزنطة واستولوا عليها .. جاءوا من آسيا الوسطى .. أبرزوا مهارة واضحة فى القتال وقيادة الجيوش ، واشتهروا بالقسوة ، وعدم الرحمة ، وألقوا الرعب فى قلوب البيزنطيين .. وفى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ سقطت العاصمة فى أيدى المسلمين وتغير اسمها إلى استنبول التى أصبحت عاصمة الامبراطورية العثمانية .

إن مايو كان شهر ميلاد القسطنطينية ، وكان أيضا شهر ميلاد استنبول .

امتدت الامبراطورية العثمانية إلى بلاد المجر ، وبحر قزوين ، والبانيا ، واليمن ، والحجاز ، وسوريا ، ومصر ، وأرمنيا ، وليبيا ، والمغرب . . كان سبعة أعشار البشر فى هذه الامبراطورية الشاسعة من غير الأتراك . . وبظهور الدول الاستعمارية ، كانت هذه الولايات الصيد الذى يُثير اللعاب . . ومن ناجيتها راح الفساد والعفن يدبان فى أوصال العاصمة استنبول .

الحرب العالمية الأولى كانت بداية النهاية . . فما أن وضعت الحرب أوزارها حتى مزق الحلفاء آخر معاقل الامبراطورية فى الأناضول . . وبينما كان السلطان «محمد السادس» يستعد لقبول شروط التسليم فى استنبول ، كان أتاتورك يعلن ـ مع مجموعة من الضباط ـ تمرده على السلطان .

رفع أتاتورك شعار : لتسقط الامبراطورية العثمانية ، ولتحيا تركيا الفتاة . . لتحيا تركيا الوطن الأم .

كان يحلم بإنقاذ تركيا من أطماع الغرب ، وتخلف الشرق .

وبدأ المشوار بعيدا عن السلطة والسلطان فى استنبول ، فى مدينة تبعد أربعة أميال عن أنقرة ، تسمى «شان كايا» . . أقام لنفسه بيتا صغيرا . . من الحجر الأبيض عاش فيه وحيدا . . يخطط للمستقبل ، ويعانى من آلام الكلى ، والوحدة ، والاكتئاب النفسى أحيانا .

فى هذا البيت عرف «فكرية» . . جاءت من استنبول لتتطوع فى

جيشه ممرضة . . أحبته . . أرادت أن تتزوجه . . حاولت . . لكن . القائد لذى كان يجهز لثورة اجتماعية كبرى استسلم لسلطان التقاليد ، ورفض ن يتزوج من ممرضة بلا حسب ولا نسب . .ولاشك أن هذا الموقف كان قطة سوداء فى حياته . . ثم . . كان إن تحولت النقطة إلى بقعة ، عندما سقطت فكرية مريضة ، وسافرت إلى العلاج ، وبعد أن عادت فوجئت الحرس يمنعها من الدخول . . فانتحرت على الباب .

فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٢٠ تكونت جمعية وطنية ، دعت إلى تشكيل حكومة مؤقتة ، ونودى بأتاتورك رئيسا لها ، لكن . . كان على أتاتورك تحرير بلاده قبل أن يحكمها . . كان عليه غسل عار الاهانة التى لحقت بالبلاد بعد توقيع معاهدة سيفر التى نصت على تقسيم تركيا وكان من أهم عوامل ثورة الجيش فى وجه السلطان الذى وقعها . . كان عليه طرد جيوش الأرمن ، والايطاليين والانجليز ، واليونانيين أيضا : . وفى سبتمبر ١٩٢٢ نجح فى ذلك ، وكان إن نزل السلطان عبدالحميد ـ الثانى عن العرش ، هرب من استنبول سرا ، وسقطت الخلافة العثمانية نهائيا فى ١٧ نوفمبر ١٩٢٢ .

لم يتردد أتاتورك فى تصفية كل الحسابات القديمة . . فرض الرقابة على رجال الدين . . أمم البنوك . . ذبح الأكراد . . أباد الأرمن . . وأجبر اليونانيين على الهرب . . حمامات من الدم ومجازر بشرية قتل فيها خصومه ، جعلته أستاذا ومعلما لهتلر فيما بعد .

وعندما راح يشنق معارضيه سجل لنفسه الرقم القياسى لستالين فى

روسيا القـريبـة منه . لكن . . أتاتورك لم يتخلص ـ فى الحقيقة ـ من خصومه ومعارضيه فقط ، وإنما تخلص من التخلف ، والأمية والسيطرة الأجنبية ، أيضا .

فهل يشفع له ذلك ؟

هل يشفع له أنـه حرر الفـلاح ، والمرأة ، ومد الطرق ، وأقام الجسور ، وشيد المصانع ، ورفع مستوى المعيشة ، وقفز بتركيا من عصر إلى آخر ؟!

لقد كان ديكتاتورا . . لكنه كان أيضا مصلحا . . كان باطشا . . لكنـه كان أيضـا وراء الانقـلاب المـذهل الذى قفز بتركيا من القرون الوسطى إلى القرن العشرين !!

إن الأتراك غفروا له ما فعل . .

وقال لى أستاذ فى جامعة أنقرة :

ـ إن أى ولادة جديدة لا تأتى دون آلام . . ودون دماء . . إنها سنة الحياة . . ثم لا يمكن أن نحكم على أتاتورك الآن ، دون أن نستدعى الظروف التاريخية المظلمة التى لمع فيها . . إن ذلك نوع من الظلم لرجل صنع المستحيل فى ٢٠ سنة فقط .

ـ لكنه . . ذبح وشنق وحكم البلاد بالحديد والنار .
ـ الانجـازات الكبيرة لها أخطاء كبيرة . . ثم انه قبل أن يموت بثمانى سنوات أحس باستقرار البلاد ، فرفع الرقابة ، وسمح بحزب معارض

«حزب الأحرار» للحزب الحاكم «حزب الشعب» . . ولن تصدقنى إن قلت لك ، إنه بمجرد أن سمح للحزب المعارض بالشرعية والحركة ، حتى انقسمت البلاد ، وكادت أن تشتعل الحرب الأهلية ، لولا أن قضى أتاتورك على الفتنة .

ـ هل تريد أن تقول إنكم لم تحتملوا الديمقراطية فحولتموها إلى فوضى ؟

ـ طبعا . . لا . . ولكن أقول لكل عصر رجال . . وقد كان أتاتورك رجل عصره . . بحق !

ثم أضاف :

ـ بماذا تفسر تلك الجنازات الصاخبة التى اشتركت فيها الملايين وهى تودع حكاما وصُفوا فيما بعد بالديكتاتورية ، مثل لينين ، وستالين ، وأتاتورك ، وعبدالناصر ؟

ـ وبماذا تفسر الحملات الشعبية المضادة التى تعرض لها هؤلاء الحكام بعد أن جفت الدموع عليهم ؟

ـ لم يحدث لأتاتورك فى تركيا ، ما حدث لستالين فى روسيا ، ولا ما حدث لعبدالناصر فى مصر لقد بكيناه ولانزال . . واحترمناه ولانزال .

ـ عندك حق !

إن أتاتورك كان يُوصف بالذئب . . كان وجهه صارما . . وكانت عيناه قويتين لا تتحركان إلا نادرا . . وكان يميل إلى تسريح شعره إلى الخلف مثل الألمان ، الذين كان يكن لهم اعجابا خاصا . . وكان يقول إن

الشعوب التى خلقت للقتال مثل الأتراك والألمان لا تحتاج إلا إلى قائد ينفض عنها حالات الترهل والكسل . . وكان يردد دائما أن النور والنار شىء واحد . . رغم أن النور يضىء والنار تحرق . . لكل شىء وجهان يجب التسليم بهما والتعامل معهما . . ومن السذاجة أن نقطف الأزهار ولا نتوقع أن يُدمى أصابعنا الشوك .

وقد جن الأتراك به . .
وبما فعل فى تركيا !

المذهل أيضا . . أن بعض المصريين أُعجب بما جرى فى تركيا . . وانتشر اسم «كمال» وانتشرت أسماء قادة حركة «تركيا الفتاة» مثل «عصمت» و«طلعت» و«أنور» السادات ومثل «جمال» عبدالناصر حسين . . وبعد سنوات كان فى مصر حزب يسمى «مصر الفتاة» مثل تركيا الفتاة .

أصبح أتاتورك فى حياة الأتراك الكل فى الكل .

وزادت السلطة المطلقة من نقطة ضعفه الشهيرة تجاه النساء . . كان يحكم تركيا . . وكان من الممكن أن تحكمه المرأة . . وقد فعلت ذلك بنجاح ، لطيفة هانم . . وهى سيدة تركية مودرن . . عيناها على أوروبا فى كل شىء . . الثياب . . البروتوكول . . الجرأة . . التحرر . . المساواة . . اسلوب الحياة . . كانت من أسرة ارستقراطية ، تعمل فى بناء السفن . . وقد اقتحمت بيته فى أنقرة ، ودعته لكى يعيش فى بيت

أسرتها ، فوق التلال الواقعة خلف ميناء أزمير . . وقبل أتاتورك . . وقبل أيضا أن يتزوجها .

وأصبحت لطيفة هانم زوجته وسكرتيرته ، وبعد أن أصيب بنوبة قلبية أصبحت ممرضته . . . فرضت عليه نظاما صارما فى الطعام ، والتدخين ، والعمل . . وضج أتاتورك . . أن الديكتاتور هو أسرع الناس ضيقا من ديكتاتور آخر . . حتى ولو كان زوجته .

وتمرد أتاتورك على زوجته ، ورفض أوامرها ، وخرج على نظامها . . وبدأ يتهمها بأنها تتجاوز حدودها كامرأة . . وتتدخل فيما لا يعنيها . . لكنها . . لم تستسلم بسهولة .

قالت له :

ـ انك رجل شديد التناقض ، تمنح المرأة المساواة خارج بيتك ، وتحرمها منها داخل بيتك . . إنك لا تؤمن بما تفعل !

ـ إذا لم يعجبك فالباب يفوّت جمل !

ـ لايزال فى داخلك فلاح متخلف ينظر إلى المرأة وكأنها قطعة أثاث .

ـ الكلام معك أصبح مستحيلا . . إنه يؤدى إلى المورستان .

وحدث أن دعيا إلى مأدبة غداء مع ضباطه وزوجاتهم ، وأحست لطيفة هانم بأن زوجها يخص زوجة أحد الضباط باعجاب خاص ، فلم تطق نفسها . . وهبت واقفة . . بعد أن اتهمته بانه يداعب بقدمه قدم المرأة من تحت المائدة .

قالت له :

ـ كمال . . لقد وصلت قدماك ، دون أن تقصد إلى قدمى أنا !

وأحس أتاتورك بالحرج ، والاهانة ، وانتهى الحادث بالطلاق . . لكن أولاد الحلال تدخلوا بينهما فقبل أسفها وندمها ، وعادت إلى ذمته . .

بعد شهرين عادت لطيفة إلى عادتها القديمة . . وتكهرب الجو بينهما من جديد . . وكان إن طلقها أتاتورك هذه المرة إلى غير رجعة .

وبعد شهرين آخرين ، صدر فى تركيا قانون مدنى ، يمنع الطلاق إلا بالمحاكم .

وصفقت النساء . . واستسلم الرجال .

وتوالت القوانين التى كانت فى صالح النساء . . حق التعليم . . حق الانتخاب . . دخول البرلمان . . وتولى الوظائف العليا فى الدولة .

لكن الرجل الذى أنصف النساء لم يتردد أن يطرد امرأة من البلاد ، ويحرمها من العودة لأنها رفضت الاستسلام له . . هذه المرأة هى الأديبة التركية الشهيرة خالدة أديب ، التى عملت أستاذة للآداب العربية فى جامعة استنبول بعد الحرب العالمية الأولى ، وكتبت رواية «اضربوا الغانية» ، ورواية «طوران» ، ورواية «قميص النار» . . وهى روايات شهيرة تدور حوادثها أيام حرب الاستقلال .

ولم تعد خالدة أديب إلى تركيا إلا بعد أن مات أتاتورك فى سنة ١٩٣٨ .

وبعد أن مات أتاتورك لم تحد تركيا ـ سنوات طويلة ـ عن طريقه . . وبقيت أنقرة ـ العاصمة ، شاهدة على وجوده . . على الأقل خارجيا . . فهى تبدو وكأنها مدينة المانية . . طرز المعمار . . يونيفورم الجنود . . وخطوات الناس الصارمة على الأرض . . وهى تبدو وكأنها مدينة فرنسية . . أزياء النساء . . البوتيكات . . وحركة الشبان والبنات المنطلقة . . وهى تبدو وكأنها مدينة انجليزية . . النظام . . النظافة . . والبرودة .

على أن هذه المظاهر الأوروبية الخارجية لأنقرة ، لم تستطع أن تلغى الشرق تماما من أعماقها . . الشرق قائم ومستمر ومسيطر فى الصوت . . فى سلوكيات الأتراك الشخصية . . وفى عاداتهم الاجتماعية . .

الغرب فى الخارج . . والشرق فى الداخل .

هذه هى أنقرة التى بناها أتاتورك على مزاجه ، وحولها من قرية إلى عاصمة .

هؤلاء هم الأتراك بعد حوالى نصف قرن على رحيل أتاتورك .

فهل نجح أتاتورك أن يتعايش الشرق والغرب فى مدينة واحدة؟ . . أم أن هذا التعايش مهما طال فهو مؤقت ، ومحكوم عليه بالفشل ، طبقا للعبارة الشهيرة . . الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيان !

فى السنوات الأخيرة ، انفجر الشرق الحبيس فى صدور الأتراك ، وزادت نغمة العودة إلى الجذور والتخلص من الغرب .

وبدأت الرغبة فى أن تسترد تركيا انتماءها التاريخى إلى الحضارة ألتى كانت ذات يوم عاصمتها .

عادت الحياة تدب ـ داخل المجتمع التركى ـ فى رموز الحضارة الشرقية المتوارثة من الموسيقى إلى الطعام . . ومن زخارف المبانى إلى خطوط الثياب . . ومن الارتباط الدينى إلى التنسيق سياسى . .

وكان لابد من تفسير لهذا الانقلاب . .

ما الذى جرى ؟

ولماذا جرى ؟

هل أصيبت تركيا بمرض الحنين إلى الماضى ؟ أم يئست من الغرب ؟

كل مسئول تركى سألناه هذا السؤال ، أجاب بكلمة : نعم .

ثم . . كان يضيف :

ـ «اننا لسنا جيرانا فقط ، وإنما أخوة نتقاسم نفس التراث ، ولنا نفس المصالح» .

«وعندما نتجه إلى تكثيف علاقتنا بالعالم العربى ، وتطوير الروابط الثقافية والحضارية والاقتصادية بيننا . . فهذا ليس مجرد «سياسة خارجية» تتطلبها الظروف ، وإنما هو التعبير عن واقع حقيقى وتاريخى قائم» .

وكان علينا أن نقول بحماس :

ـ أهلا بعودة تركيا إلى العرب !

سر الشباب الدائم !

زار رجل تركى ، عمره ١٣٠ سنة ، ابنه المهاجر إلى أمريكا .

فى ميناء نيويورك ، فوجىء ضابط الجوازات بتاريخ ميلاد الرجل . . وفُوجىء أكثر بصحته فهو عملاق . . وقوى . . صوته أجش . . وظهره غير منحن . . ويده لاترتعش . . وجسمه لا يهتز . . نظراته قوية وأعصابه أيضا . . يدق على الأرض وكأنه جندى لايزال فى الخدمة .

أخذ ضابط الجوازات عنوان الرجل فى أمريكا ، وأبلغ رئيسه بوجود هذه المعجزة البشرية فى بلادهم . . وأبلغ رئيسه عمدة نيويورك ووزارة الصحة ، ومعاهد الأبحاث الطبية ، ومكتب الرئيس وإدارة شئون الهجرة . .

واستدعوا الرجل . . خلعوا ملابسه . . فحصوه . . أجروا عليه عشرات الاختبارات . . وأجروا له عشرات التحاليل . .

وسألهم الرجل :

ـ هل ارتكبت جريمة ، لا سمح الله ؟

قالوا :

ـ لا . . وإنما صحتك على مايرام ! . . صحتك زى البمب !

سألهم :

ـ وما وجه الغرابة هنا ؟

قالوا :

ـ أمرك عجيب ياأخى ، عمرك ١٣٠ سنة ، وصحتك ممتازة ، ولا تعرف وجه الغرابة !

ولم يفهم الرجل سر دهشتهم فعلا . .

فهو من قرية صغيرة ، تقع فوق هضبة الأناضول ، كل من فيها معمرون . . ومن يمت منهم فى سن المائة يكون كمن مات فى عز شبابه .

وهو قد جاء إلى أمريكا ليقضى شهر العسل مع زوجته الأخيرة عند ابنه . . والزوجة شابة تكاد تكون فى عمر أحفاد الابن . . أو . . أصغر .

سألوه :

ـ ماذا تفعل ؟

ـ أجفف المشمش ، والعنب ، والتين .

ـ كم مرة تزوجت ؟

ـ ٩ مرات !

ـ وعدد أولادك وأحفادك ؟

ـ العدد فى الليمون .

ـ ماذا تأكل ؟

ـ يوغورت !

وفهموا بعد طول شرح انه يقصد باليوغورت . الزبادى .

ـ وماذا تشرب ؟

ـ أياران !

وفهموا أن المقصود بالايارن هو الزبادى المضروب بقوة ، والمخفف بالماء .

وترك الأمريكان الرجل يعود إلى ابنه .

ومن يومها عرفوا الزبادى ، وعرفوا أنه يطيل العمر ، ويحفظ الشباب ، ويجعل الرجل لا يعرف عدد أولاده . . فراحوا يروجون له . . وتنافسوا على تقديمه فى عبوات مختلفة . . وتنافسوا على تقديمه بالفواكه . . وبالسكر . . وبدرجات حموضة متفاوتة .

هذه القصة الطريفة ، يرويها لك الأتراك على مائدة الطعام ، قبل أن يقدموا لك اليوغورت والأياران . . لقد حكمتهم أمريكا بقوات حلف الأطلنطى وحكموها بالزبادى . . هكذا يقولون .

ولا أحد يعرف مدى صحة هذه الرواية . . هل هى حقيقية أم نكتة ؟ . . دعاية أم دردشة طعام ؟ . . لا يعرف أحد . . وعندما تسأل الأتراك ، لماذا لم يطل عمر الأمريكان بعد دخول الزبادى بلادهم ، قالوا لك :

ـ لا . . الزبادى وحده لا يكفى . . لابد من هواء الجبال النقى ، ولابد من راحة البال ، ولابد ـ وهذا هو الأهم ـ أن تكون الزوجة تركية !

وإذا ما حاولت أن تأخذ الموضوع بجدية ، وتستطرد ، وضعوا لك العقدة فى المنشار ، وقالوا :

ـ هذا الجدل هو الذى يقصف العمر !

ولابد بعد ذلك أن تبتسم ، وأن تضحك على نفس النكتة ، بنفس الحماس ، أكثر من مرة !!

إن الأتراك هم الأطول عمرا . . لأنهم الأكثر استهلاكا للزبادى . . فهم يأكلونه على الريق ، وقبل النوم ، وأثناء العمل . . وهم يشربونه فى صورة أياران بدلا من الماء طول النهار . . والأهم من الزبادى فلسفة الزبادى . . وفلسفة الزبادى أن تأخذ الحياة بسهولة . . بنفس السهولة التى تلتهم بها الزبادى . . إنها يوجا على الطريقة التركية لكنها يوجا تدريباتها بالكلمات لا بالحركات . . فعندما يعجب أحدهم بامرأة وصفها بأنها يوغورت . . أى إنها مرطبة ومفيدة . . وإذا ما مر إنسان بكارثة . هونوا عليه بكلمة «يوغورت» . . يعنى خدها ببساطة .

ما رأيك فى هذه الفلسفة ؟

حاول أن تجربها . .

لكن . . على مسئوليتك . .

فأنا لا أضمن ماذا سيحدث لك ، لو دخلت سرادق عزاء ، وبدلا من أن تقول «البقية فى حياتكم» ، قلت : «زبادى» .

.أنا أتصور انك ستلبس قضية ، لو استخدمت الكلمة بجدية ، وسمعها رجل بوليس عبقرى وتصور إنها رمز أو سيم لشحنة مخدرات ، تقوم بتهريبها إلى البلاد .

هذا . . . إذا لم تقذف بك الكلمة إلى عنبر الرجال فى السرايا الصفراء .

والأتراك لا يأكلون اليوغورت فقط .

مطبخهم عامـر بأطبـاق مميزة . . وطعامهم شهى يفتح النفس ، ويشعـل الرغبة فى الشهية ولا يصلح معه الرجيم . . وأنا لم ألتهم طعاما فى بلد ، كما فعلت فى تركيا . . ورغم الحركة طوال الرحلة ، فقد زاد وزنى بمعدل كيلوجرام كل يوم . . وأحمد الله اننى لا أعيش فى تركيا . . وزيارتى لها لا تتكـــرر كثيرا . . وإلا أصبحت عضـوا بارزا فى جمعية «أشجار الجميز» بعد أن شاركت فى الدعوة لنشر بنطلون الجينز . .

وفى المـدن يأكـل الأتـراك أكثر ، لذلك فأجسام الرجال ممتلئة ، وأجســام النساء ليست دائما «غصن بان» . . وحتى وقت قريب كانت المرأة الجميلة هى المرأة التى يزيد وزنها وتختفى رقبتها ، وتتغرز الخواتم فى أصابعها ، والأساور فى معصمها من اللحم والشحم .

ومن حسن حظ الرجل أن التقاليد لم تكن تفرض عليه أن يحمل عروسه فى ليلة الزفاف والجيل الجديد من البنات تمرد على أوزان الأفيال ، وسعى إلى أوزان الغزلان . . التركيات اليوم رشيقات . . لكن الرشاقة

تكلفهم الكثير من الرياضة ، والحركة ، والحرمان من الطعام الشهى . . ولا رشاقة بدون إصرار . . حيث أن قوانين الوراثة تقف لهن بالمرصاد .

وفى الجبال يأكل الأتراك أقل ، لذلك فأجسامهم نحيفة جدا . . لكن أعمارهم مع ذلك أطول . . فهم يعيشون على ألبان الماعز ، ويأكلون الخبز الأسمر ، ولا يعرفون الحلوى ، والطبق الدائم على موائدهم لا يزيد عن حبات المشمش المجفف المطبوخة فى الصلصة .

فى الجبال الطعام صنف واحد وفى المدن قائمة الطعام متنوعة . . ولها أصول وطقوس وتقاليد صارمة . . فتركيا رغم إنها هجرت الشرق ، وارتمت فى أحضان الغرب ، حافظت على مطبخها من الغزو الأجنبى ، والانفتاح على أوروبا . . وفصلت بين أطباقها وأطباق الآخرين .

والأتراك هم الذين علمونا الطبخ بالصلصة ، وهم الذين علمونا صنع «المحشى» ، وهم الذين علمونا الشاورمة ، والخشاف ، وقمر الدين ، وتجفيف العنب ، وصنع البقلاوة والكنافة والقطايف ، والحلويات الشرقية التى نسميها الحلويات الشامية .

لكننا لم نحافظ على أصول ماتعلمناه . . ولا على قواعد تقديم الطعام وتذوقه . . واختلط مطبخنا الشرقى بالطعام الغربى . . دخل المحش على الفيليه . وقُدمت البامية باللحم الضانى بقطع الاسكالوب بانيه . . ولم يعد لدينا مانع من وضع الكنافة والبقلاوة مع الجاتوه فى وقت واحد . . وهذا فى عُرف الأتراك جريمة لا تغتفر ، وعجز عن التذوق ، وفشل ذريع فى فهم البروتوكول .

ان الشرق شرق ، والغرب غرب على المائدة التركية . . ولا يمكن أن يلتقيا .

حدث فى مطعم كبير بمدينة استنبول أن طلبت بعد المسقعة قطعه اسكالوب بانيه فاعتذر مدير المطعم ، لأن ذلك لا يجوز . . التقاليد لا تسمح . . وقبل أن أناقشه فى حرية التذوق وحق الانسان فى التعامل مع معدته ، نصحنى رفيقى التركى ، أن ألم الموضوع ، وكفى ما وجهته من إهانة .

وبدون كلام ، قبلت طبق الشيش كباب .

وتتجاوز المطاعم الصغيرة بعض الشىء . . إنها أقل صرامة فى فرض هذه التقاليد . . أما لأنها صغيرة . . وإما لأنها غير مكلفة بحماية هذا الشرف الرفيع ، وفض الاشتباك بين الأكلات . . وإما إنها غير مستعدة أن تدخل فى جدل لن ينتهى مع الغرباء والسياح .

إن بعض علماء النفس والاجتماع يقولون : إن الدفاع عن الطعام التركى ، وتعامل الأتراك معه على إنه قضية وطنية لا يجوز التفريط فيها ، نوع من الدفاع الذاتى ، الخفى غير الواعى ، ضد الذوبان فى الغرب . . خاصة وأن تركيا عضو فى حلف الأطلنطى ، ومن مؤسسى حلف بغداد القديم ، وهى قاعدة أمريكية متقدمة موجهة ضد الاتحاد السوفييتى الواقعة على حدوده .

سبحان الله . . . يفرط الأتراك فى السيادة الوطنية ، ويموتون فى سبيل المسقعة !

على كل حال هذه قضية أخرى .

فنحن الآن نتحدث عن المسقعة فقط !

لو دخلت لتناول طعامك فى مطعم تركى ، فالأصول أن يقدموا لك «الضولمة» أو المحشى كفاتح للشهية ، مع سلاطة الزبادى ، والخيار ، والمخلل ، وقطع الطماطم المغطاة بالثوم والبقدونس . . ثم يأتى الطبق الأول . . شاورمة . . كوبيبة . . مكرونة فى الفرن . . مسقعة . . ومع الطبق الأول سلاطة طحينية بالحمص وزيت الزيتون . . أو بابا غنوج . . أو سلاطة خضراء بالبصل والجبن الأبيض والزيتون الأخضر ، والأسود . . ثم يأتى الطبق الرئيسى . . وهو غالباً شيش كباب . . وأخيراً الحلوى . . بقلاوة . . مهلبية . . أرز باللبن . . أنت حر . . وإن كنت أفضل أن أتناول نوعا آخر غير معروف من الحلوى ، عبارة عن صدر دجاجة غارقة فى الكريمة والعسل والمكسرات . . وتفضل بالهناء والشفا . . أو «صحتين على قلبك» كما يقول الشوام .

وتستطيع أن تتناول هذه الوجبة «إن استطعت» فى مطعم شهير وتدفع ٢٠ دولارا ، وتستطيع أن تتناولها فى مطعم شعبى ولا تدفع سوى ٥ دولارات . . والفرق فى مستوى الطعام فى المكانين لن يكون كبيرا . . الفرق سيكون فى مستوى الخدمة ، وفى عدد الجرسونات الذين يخدمونك وينحنون لك .

وتنتشر المطاعم الشعبية فى تركيا ، كما تنتشر محلات الفول والطعمية والكشرى عندنا . وبجانب هذه المطاعم ستجد محلات بيع

المكسرات . . ومحلات بيع الحلاوة الطحينية الممزوجة بالشيكولاتة ، أو الفستق الأخضر . . ويجانب هذه المحلات ستجد أجزخانة ، أو مستوصفا ، أو عيادة طبيب ، لأنك لو زرت كل هذه الأماكن معا فحتما ستكون فى حاجة لمن ينقذك من التخمة ، أو من سوء الهضم . أو من سوء الحظ لأن معدتك لا تحتمل هذا الاغراء .

وأنصحك لوجه الله ، أن تسأل بمجرد نزولك المطار ، عن رقم تليفون الاسعاف ، فقد تحتاج إليه ، بمجرد التعامل مع مطعم أو محل من تلك التى تغرى المعدة بالتمرد على الصيام أو الانتظار .

الأتراك أنفسهم يحفظون هذا الرقم كما يحفظون أرقام تليفوناتهم .

وليست صدفة أن يتكالب الأطباء هنا على التخصص فى أمراض الجهاز الهضمى . . وليست صدفة أن يحمل الناس فى جيوبهم كل أقراص الهضم ، والحموضة ، والكلوسترول ، والنقرس . وأن يتعاملوا معها بإدمان .

وفى موسوعة الطهى العالمية التى أصدرها الفرنسيون ، وشاركت فيها ابنة الرئيس الفرنسى الاسبق جيسكار ديستان ، فصل كبير ، ومثير عن المطبخ التركى .

وهم يقولون أن الفرجة على الأطعمة التركية تفتح الشهية . . الجواب يعرف من عنوانه . . وهم يقولون أن هذه الأطعمة تغفر لأصحابها القسوة التى اشتهروا بها على مر التاريخ وهم مصابون بحيرة . . لا يعرفون العلاقة بين المسقعة واتساع رقعة الامبراطورية

العثمانية . . فهل سيطر الأتراك على الشعوب الأخرى بالمسقعة ؟ . . هل بطشوا بتلك الشعوب ثم علموا أهلها كيفية صناعة البقلاوة . . ثم واللغز الأصعب . . لماذا أكلت تلك الشعوب الطعام التركى واسترخت ، وأكل الأتراك نفس الطعام ونشطوا ؟!

وهم يقولون أن الأتراك أول من فرم اللحم ، وأول من ابتكر فن الشواء . . وأول من عرف قيمة التوابل والبهارات . . وقد اشتهروا بأسياخ الشيش كباب . . قطع من اللحم مع قطع من البصل والفلفل الأخضر تُرص فى أسياخ على جمرات الفحم .

ولا يحظى الديك الرومى فى تركيا بنفس الاعجاب الذى يحظى به فى أمريكا . . مع أن الأمريكان يسمونه «تركى» . . وليس صحيحا إنه يُنسب إلى الأتراك . . الأتراك يتبرأون من هذا النسب . ويصرون على إنه يُنسب للهنود . . وهم يسمونه «دندى» أى «هندى» ونحن أيضا لكن دون أن نعرف أصل الكلمة .

ولا يأكل الأتراك لحم الخنزير ، لأن الشريعة الاسلامية تحرم ذلك . . والأتراك حوالى ٥٠ مليون نسمة . . حوالى ٩٨٪ منهم مسلمون ، والباقى ديانات أخرى منها اليهودية . . وكل المسلمين من أهل السنة ، رغم الحدود المجاورة لايران والعراق .

وليس صحيحا ـ والملاحظة لنا لا لموسوعة الطهى الفرنسية ـ إن الأتراك يشربون القهوة التى نسميها نحن القهوة «التركى» . . وهم يقولون : إنها من اختراع «قهوجى» مصرى مجهول ، أغلب الظن انه

نسبها لنا حتى يُقبل عليها الناس . . ومن الصعب أن نعرف الآن من هو ذلك «القهوجى» الذى زيف التاريخ ، وهرب منه ، ونسب لغيره ، ما ابتكره بنفسه .

القهوة التركية هى القهوة الأوروبية . . التى يضاف إليها الحليب أحيانا . . أو تُشرب سوداء غالبا . . والشاى ينتشر أيضا . . لكن بين الأوساط الفقيرة . . وهم يشربونه على المقاهى ـ جمع مقهى والتى يصر د. لويس عوض على ان أسمها «قهوة» ـ . . لكن لا يخلطونه باللبن ، وإن تناوله العمال «سادة» مع «السميط» فى الصباح بدلا من الافطار .

ولا يعترف الأتراك بالسندويتش . . ويعتبرونه طعام من لا وطن له ولا أسرة ولا ذوق له . . وبعضهم يضيف : إنه طعام من لا معدة له . . لذلك كان من الطبيعى أن تُفلس محلات الهامبرجر فى استنبول وأنقرة . فحتى السياح لا يدخلونها .

ولعل الأتراك أول من سجلوا بعض الأطعمة بأسمائهم . . ونحن نعرف الكفتة الغارقة فى صلصة الطماطم التى تُعرف باسم داود باشا . . وقد لاحظ اللورد الانجليزى ايرل جراى ذلك فسجل باسمه نوعا من الشاى ، يُعرف حتى الآن باسمه ، وله مذاق مميز فعلا . . لكنه لن يعجب المصريين الذين لا يعترفون إلا بالشاى الذى فى لون الحبر الأسود لأنه فى لون الخروب أو العرقسوس لا فى لون التمر هندى . . مع أن الشاى الغامق أردأ أنواع الشاى . . وأغلب الظن أن نشارة الخشب المصبوغة التى نغش بها الشاى هى السبب أى أننا لا نشرب شايا وإنما

نشارة خشب . ثم بالمناسبة أرجو أن لا تنسى أن اسم ساندويتش هو اسم لورد انجليزى أيضا .

والمشروب الوطنى فى تركيا «العرق» ، والأتراك ينطقونه «آراك» . . وهو يُقطر من اليانسون الأخضر . . شىء مثير للدهشة فعلا أن يخلق الله اليانسون الأخضر ليكون مهدئا للأعصاب فإذا بالانسان يقلب كيانه ، ويغير طبيعته ، فيُصبح مهيجا للأعصاب ، مثيرا للغثيان لقد أفسد الانسان كل ما حوله ونفسه أيضا .

وعندما ترى «العرق» تعتقد إنه ماء ، فلا لون له ، لكن له طعم ، وله رائحة . . فإذا ما وُضع عليه الماء ، تعكر لونه .. وأصبح مثل لون بخار الجير . . وواضح انه مشروب قوى . . صخب الأتراك فى الشوارع بعد منتصف الليل يؤكد ذلك . . ولا يمكن أن أتصور أن السبب مشروب آخر لأن النعرة الوطنية التركية التى تبدأ بالطعام لابد أن تنتهى بالشراب . . أو العكس .

وللعرق نفوذ امتد من الامبراطورية العثمانية إلى الدول القريبة من الدولة ـ الأم . . سوريا . . لبنان . . والعراق . . لكن . . نفوذه كان أضعف من نفوذ الطعام . . فالمسقعة عبرت البحر المتوسط ووصلت إلى مصر . . وكفتة داود باشا عبرت البحر المتوسط ، والنيل ، ووصلت إلى السودان . . أما الشيش كباب فوصل إلى بلغاريا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والمجر . . . ومنها إلى فرنسا وبلجيكا وبريطانيا . . إنه الذكرى الوحيدة «العطرة» الباقية من رائحة الباب العالى .

ويبدو أن الأتراك حاولوا استثمار ذلك ، فصنعوا الكباب من الدجاج ، ومن السمك لكن المحاولة فشلت .

وبقيت المحاولة داخل المطاعم الصغيرة ، والكبيرة ، المنتشرة فى وسط المدن . . وفى مناطق الأسواق التجارية . . وأحيانا على الأطراف . . بالقرب من السواحل ، وعلى التلال حيث تنتشر مطاعم الشواء . . وهى مطاعم مفتوحة ، فى الهواء الطلق . . بعيدة عن العيون ، وهى تقدم لزبائنها الخراف المعلقة على الفحم . . والأسماك أيضا . . وفى تركيا ٢٢٠ نوع سمك ، و٧٠ طريقة لتقديمها . . وأشهر الأنواع اسمه «السلطان حسن» . . وهو نفسه السلطان حسن صاحب المسجد الشهير فى القاهرة . . فقد كان الرجل يحب الصيد . . كل أنواع الصيد . . السمك . الغزلان . والنساء . . ثم . . أعلن توبته وانصلح حاله وكفر عن ذنوبه ببناء تلك التحفة الاسلامية فى منطقة القلعة . . فى مواجهة مسجد الرفاعى الذى يضم مقابر الأسرة الملكية ، والمصرية ، من الملك فؤاد الأول إلى الملك فاروق الأول والأخير .

ومطاعم الشواطىء ، أغلب زبائنها من السياح . . لذلك فهى مطاعم صيفية . . وهى حريصة على الأسعار الرخيصة . . وعلى عدم التعاون مع القطط الضالة .

أما مطاعم الجبال فهى للعشاق الصغار ، ورغم أن الطعام الذى تقدمه شهى ، فإن الزبائن لا يأكلون ، لأن الحب الذى جاءوا يبحثون عنه وسط جمال الطبيعة غالبا ما يكون أشهى من أى طبق آخر . . إن

الحب هنا هو الطبق الرئيسى . . وهو لا يحتاج لفواتح للشهية ، ولا لسلاطات . . وقُل أن فواتح الشهية تأكلها العين لا الاسنان . . الخضره النعومة . . الازهار . . والوجه الحسن .

وحتى وقت قريب كان المصريون الأثرياء يأكلون سمك «البكالاه» المملح ، المستورد من تركيا . . وكانت الأسر فوق المتوسطة لا تبدأ عيد الفطر إلا بعد أن تضمن حصولها على كميات وفيرة من هذا النوع من الاسماك . . مع أن الفقراء فى تركيا هم فقط الذين يأكلونه، فهم غير قادرين على شراء الأسماك الطازجة ، والأرخص بالنسبة لهم تلك الأسماك الكبيرة والرقيقة والمغطاة بطبقة من الملح ، المسماة «البكالاه» .

إن إغراق السمك فى الملح على هذا النحو وسيلة من وسائل الحفظ ، حتى يمكن تناوله بعد شهور . . وهى وسيلة بدائية اكتشفها الانسان قبل اختراع الثلاجات ، وقبل تصنيع الأسماك وتعليبها . . كان الهدف هو تخزين الفائض إلى وقت الحاجة . . لكن عندما استخدم الانسان ما حفظه وخزنه بهذه الطريقة اكتشف أن لها مذاقا يختلف عن مذاق الأسماك الطازجة من نفس الأنواع . . واستساغ البعض الشرائح المملحة عن الشرائح الطازجة . . فبدأ يتعمد تمليحها بعد أن كان يُجبر على ذلك . . أصبح يعالجها بهذه الطريقة ليتذوقها بعد أن كان الهدف حفظها فقط . .

وهذا لم يحدث مع سمك البكالاه فقط ، وإنما حدث أيضا مع سمك التونة ، ومع البسطرمة والسردين ، والفواكه مثل المشمش ،

والتين ، والعنب . . وتغير اسلوب التناول . . وتغير سر التحنيط . .
وقامت صناعات جديدة . . وأضيفت صادرات لم تكن معروفة . .
انقلبت الآية . . لم تعد تلك الأطعمة المجففة للفقراء ، وإنما تكالب
عليها الأغنياء . . وراحوا يتفاخرون بتقديمها . . ويكفى أن أذكر لك
أن كيلو السمك المدخن الذى يسميه الفرنسيون «سيمون فيميه» يصل
إلى ٣٠٠ جنيه . . وهو لا يباع بالكيلو طبعا . . وإنما بالشرائح الرقيقة
جدا التى توزن ـ مثل الذهب ـ بالجرام . . وهو مجرد فاتح للشهية ،
ويقدم مع الخبز المقدد ، والزبد ، والجبن الأبيض . . وثلاث حبات من
الزيتون الأسود أو الأخضر .

وقد اقترح على ذات عشاء ترودوتيل الملهى الليلى بفندق ايتاب ـ
استنبول أن أبدأ الطبق الأول بشريحة «سيمون فيميه» فسألته :
ـ هل الشرائح التى لديكم مدموغة ؟

ولم يفهم النكتة .
قال :
ـ إنها تحرك الشهية !
ـ لكن . . سعرها يصد النفس !

ولابد أن الرجل لعن اليوم الذى جعل أمثالى يجادلون فى «السيمون
فيميه» . . لكنه مهذب . . فابتلع الغيظ . . ثم إن وظيفته تفرض عليه
أن يبتسم دائما ، وأن يأخذ الزبائن على راحتهم ، وأن لا ينفد صبره
معهم ، بل وأن يضحك على نكاتهم ، حتى ولو كانت سخيفة . .

فالمـرتب والعمـولـة والبقشيش على قدر التحمل . . ففى النهاية يدفع الزبون كل ذلك فى فاتورة واحدة .

ولابـد انـك تتسـاءل الآن عن سر تنـازل الأتراك عن غطرستهم الشهيرة ، وقبولهم العمل كجرسونات يخدمون غيرهم من البشر . . إن الأتراك هم أحفاد التتار ، وجذورهم تمتد إلى هولاكو ، وجنكيز خان . . وعنـاصر الـوراثـة نقلت إليهم القتال ، والشراسة ، وعدم التفاهم ، وسرعـة الغضب ، فكيف قبلوا أن يصبحـوا جرسونات . . وخدما فى فنادق . . وسائقى تاكسى !! . . كيف تنازلوا ؟ . . هل الاقتصاد أقوى من جينات الوراثة ! هل الواقع أقوى من التاريخ ؟! . . نعم . . وقد حدث ذلـك لشعـوب أخـرى . . فنحن أحفـاد الفـراعنـة الذين بنوا الأهرام ، ونقشوا المعابد ، وتوصلوا إلى التحنيط ، ومع ذلك نحتار فى اصـلاح ماسـورة مياه ، أو صنـاعـة حذاء ، لا ينفصل نعله من أول مشوار . . واليونانيون أحفاد الاغريق ومع ذلك يتعثرون ، ويقعون ، ويصرخون ، من أبسط مشاكل الحياة اليومية .

إن الأجنبى لن يجد رمسيس الثانى ولا حتشبسوت ، ولا اخناتون ، ولا نفـرتيتى ، فى استقباله ، فى مطار القاهرة . . ولن يجد أرسطو ولا أفلاطون ولا الاسكندر الأكبر فى أثينا ولن يجد السلطان سليم الأول ، ولا الامبراطور قسطنطين ، فى استنبول . . إنهم رموز سياحية . . ومن الظلم أن نطلب من أحفادهم تحويل الرموز إلى واقع يتحرك على قدمين .

لذلـك . . فى تركيا جرسـونـات . . بل فى تركيا جرسونات لم أر مثلهم ، ولا مثل شطارتهم . . ولا مثل أدبهم .

إذا دخلت مطعـما ، وقـررت الجلوس ، سارع الجرسون بسحب المقعد بعيدا عن المائدة وإذا أخرجت سيجارة من علبة سجائرك ، سارع جرســون آخر بإشعالها لك ، فى نفس الثانية المناسبة بالضبط . . وإذا فرغ كوب الايارن الذى أمامك ، سارع جرسون ثالث باستبداله . . شىء مذهل . . لا يمكن أن تصدقه إلا إذا رأيت بنفسك . . خفة ، وسرعة بديهة . . ورشاقة ، تشعر بعدها انك ملك مدلل ، ولست مجرد زبون سيأكل ويمضى .

والغــريب انـك لا تشعـر بمن يخدمـك . . لا تشعـر انهم فوق رأسك . . لا تشعر انهم يراقبونك . . أنا أكره ذلك . . أكره الجرسون المخبر . . لكنهم ليسوا كذلك فهم لا وجود لهم إذا لم تحتج إليهم . . وهم أمامك لحظة أن تحتاج إليهم كأنهم يقرأون الأفكار .

ومنتهى الاهـانة أن تطلب طعاما ولا تأكله . . إن ذلك نوع من السب العلنى . . ولابد أن تذكر السبب . . هل درجة الشواء زيادة أو أقل مما تفضل . . هل شكل الطبق لا يعجبك . . هل اللوحة التى على الجدران هى السبب . . يجب أن تتكلم . . أو أن تعتذر لانك أكلت من المشهيات أكثر من اللازم فلم تعد فى حاجة إلى مزيد . فالمشهيات ، رغم إنها مشهيات فتناولها له حدود وإلا أصبحت مصدات .

واتفضل معنا . . باسم الله !

هى عنيدة .. هو متغطرس !

من بين مئات النساء والفتيات اللاتى رأيتهن فى تركيا ، شدتنى «ندرت» .

ونـدرت هو اسمهـا . وأنا لم أسألها عن معناه . . ولا فكرت . . ويبدو أن السبب هو أننى بفهلوة فهمت انه يعنى الشىء النادر ، النفيس أى أن «ندرت» بالتركى تعنى «نفيسة» بالعربى وربما كان السبب هو ان أحدا لا يسأل فتاة عن معنى اسمها إلا إذا كان فى نيته أن يتزوجها ويعرف عنها كل شىء . . لكن . . بالتأكيد كان السببب هو أنها فتاة عنيدة ، ساخطة ، متمردة ، شرسة لها مخالب وتوجى بأنها تجيد فن الكاراتيه أو التويكندوا . . فكيف أغامر وأدفع حياتى ثمنا لسؤال عن معنى اسمها ؟

كنت فى كافتيريا فندق ايتاب ـ استنبول أجلس إلى مائدة بجانب الحـائط ، أجلس ، وأدخن ، وأشرب القهـوة ، واتفرج على الصحف

والمجلات التركية . . أقول أتفرج لأننى لا أقرأ ولا أعرف اللغة التركية . . وهذه احدى عاداتى الصحفية ، أن أتفرج على الصحيفة التى لا أستطيع قراءتها . . أتفرج على اسلوب ترتيب الموضوعات ، والعناوين ، والصور ، الذى نسميه فى مصر فن «توضيب» الصحيفة ويبدو اننى كنت أبدو مثل الأمى الذى يتظاهر بالثقافة فيُمسك بالجريدة مقلوبة . . أو يتصفح مجلة التايم من اليمين إلى الشمال ، ويتعامل مع مجلة روز اليوسف من الشمال إلى اليمين بالعكس . . ويبدو أن ذلك استفز «ندرت» التى قامت من مقعدها ، دون إحم ولا دستور لتخطف من بين يدى مجلة تركية ، وتعدلها ثم . . تعطينى ظهرها ، وتعود إلى مكانها الذى أصبح من السهل على الآن أن أحدده . . بعد أن حددت فى لحظات كل شىء عنها الطول . . الشعر . . الثياب . . وحتى لون الحذاء . . أما الوجه فمن المفاجأة مر أمامى خاطفا ، ومن سرعة حركتها ، أخفى الشعر الكثير من ملامحه . . لكن ذلك لم يمنعنى من أن أعرف أنها جميلة . . أو جميلة جدا .

لم أتعرض لمثل هذا الموقف من قبل فى أى بلد ، ولا مع أى جنس من البشر . . أننى بهُت ولابد أننى ذُهلت . . ولابد اننى كنت فى حاجة إلى دقائق ألم فيها ما تبعثر منى . . ولابد اننى اتغظت . . ولابد اننى بعد تأملها من مكانى خفت غيظى ثم أنطفأ .

وشكر لها ، لأنها بدأت التعارف بهذه الطريقة ، فقد قمت من مكانى وأنا أبدو غاضبا ، واتجهت بسرعة إلى مكانها ، وعندما أصبح

بينى وبينها مسافة لا تزيد عن عرض منضدة ، وجدت نفسى أشطب كل ما بداخلى من انفعال يمكن أن يجرحها . .

قلت لها باللغة الانجليزية كلمة واحدة :

ـ لماذا ؟

سألتنى :

ـ هل تعرف لغات أخرى ؟

قلت :

ـ الألمانية . . والعربية !

قالت :

ـ تفضل !

وعندما كنت أسحب المقعد المواجه لها ، اكتشفت أنها تتكلم اللغة العربية !

وبمجرد أن جلست ، قالت :

ـ ندرت .

ـ أفندم .

ـ ندرت . . هذا اسمى .

ولم أجرؤ على أن أسألها عن معناه ، وخاصة وأن الألغاز راحت تتدفق فى رأسى ، عن هذا الاسلوب الشاذ فى التعارف ، وعن سر ما فعلته ، وعمّن وراءها ؟ . . هل تعمل فى جهاز من أجهزة الأمن . . هل هى عضو فى عصابة تهريب المخدرات وتريد توريطى . . إن الشذوذ يولد الدهشة . . والدهشة تولد اللغز . . واللغز يولد الحذر أو الحوار .

ـ تشرب قهوة ؟

هكذا . . حاولت أن تخفف من الصدمة .

ـ لم أتصورك بهذه الرقة ، رغم إنك قبل ثوان كنت تتصرفين مثل جدك هولاكو .

ـ هولاكو ليس جدى . . جدى فلاح مصرى من الصعيد .

ـ من الصعيد ! !

ـ نعم . . وقدتـزوج من امرأة تركية أقنعته بأن يترك مصر . ويعيشان معا فى استنبول .

ـ الآن عرفت سر تصرفاتك . . فدماء الصعيد الحامية اختلطت بدماء الأتراك المتغطرسة ، وكان من الطبيعى أن تتصرفى على طريقة محمد على كلاى .

ـ خشيت أن يلعب بك الخيال عندما تجد فتاة مثلى تأتى لتتعرف عليك بكلمة ، وابتسامة ، وغمزة عين . . اننى أعرف أن المصريين يهرعون وراء الفتاة السهلة لأنها توهمهم بأنهم شطار . . لكنهم لا يثقون فيها . . وأنا أردت أن أتحدث معك دون أن أعشمك بشىء . . وقد عرفت أنك مصرى من لهجتـك التى سمعتـك تتحدث بها مع زميلك المصور . . ثم . . صدقنى أنا كنت مارة من أمامك بالصدفة عندما وجدت نفسى دون قصد أفعل ما فعلت . . كثير من زملائى فى الجامعة يقولون انى استفزازية ، والصحيح إننى أبدو كذلك فقط ، والأصح اننى خجولة من أعـماق أعـماقى . . والخجـل يجعلك عاجـزا عن التفـاهم مع من حولك . . والعجز يجعل الانسان نافرا . .

ـ يبدو إنك فيلسوفة .

ـ أنا أدرس علم النفس .

ـ أنت فى حاجة فعلا لدراسته .

ـ كنت مهذبا فأصبحت عدوانيا .

ـ لا أنكر أننى مغتاظ منك لكن ليس إلى درجة العدوانية .

ـ والسبب .

ـ السبب أنك حلوة .

ـ جدتى عندها حق . إنها تقول أن المصريين يغفرون الكثير للمرأة الجميلة .

ـ يبدو انك تعلمت الدرس من جدتك .

ـ أردت أن أتحدث مع شباب مصرى ، ونحن الآن فى الشتاء ، ولا يزورنا أحد منهم إلا فى الصيف .

ـ يعنى أنا «لقطة» بالنسبة لك .

ـ لم أجد غيرك .

ـ ربنا يسامحك .

ـ هل أنت متزوج ؟

ـ نعم .

ـ رائع ؟

ـ هل تفضلين الرجل المتزوج ؟

ـ نعم . . لأنه لن يسعى إلا إلى عقلى .

ـ أنت حسنة النية بالنسبة للرجال المتزوجين .

ـ لا . . المصريين منهم فقط .
ـ هل تحرجيننى .
ـ جدتى قالت انهم يتميزون بالاخلاص النادر .
ـ آه . . طبعا . . جدتك عندها حق .
ـ هل زرت مصر ؟
ـ لا .
ـ أنصحك بزيارتها .
ـ أتمنى أن أتزوج شابا مصريا .
ـ لا أنصحك بذلك .
ـ تخشى على من السعادة .
ـ بل أخاف عليك من الصدمة .
ـ لا أفهمك .
ـ ولا أنا .

ـ جدتى تقول أن المصريين صرحاء ، ولا يميلون للف ولا للدوران ، فلماذا لا تبدو واضحا .

ـ تشربى قهوة ؟
ـ أفضل عصير القصب .
ـ هل فى استنبول عصير قصب .
ـ لا فى القاهرة .
ـ لابد أن جدتك حدثتك عن عصير القصب .
ـ نعم . . وأتمنى أن أزور القاهرة لأشربه .

ـ سبب وجيه لزيارة القاهرة .
ـ هل تسخر منى ؟ .
ـ لا . . ولكن لابد أن جدتك قد قالت لك أن الشعب المصرى «ابن نكتة» ولا يُفوت أى شىء دون أن يسخر منه .
ـ نعم . . وأريدك أن تروى لى نكتة لأرويها إلى لجدتى .
ـ يبدو من الأفضل أن أتحدث إلى جدتك مباشرة .
ـ سيسعدها ذلك ، لكن لابد أن أستأذنها أولا .

ولابد أنك ـ بعد هذا الحوار ـ قد انقلب كيانك مثلى . . فها هى الفتاة التى بدت إستفزازية ، قد فرضت على إحساس بالبراءة . . وها هى الفتاة الحلوة ، الجذابة التى لا تصدق نفسك إذا جلست ، معها تؤكد لك إنها لم تجلس معك إلا لأنك زوج مصرى مخلص لزوجتك . . وها هى الفتاة التى تدرس علم النفس فى جامعة استنبول ، لا ترى العالم الذى نعيش فيه الآن إلا بعيون جدتها . .

إن جمالها يصرخ ، لكن حوارها مثل الماء . . فاتر .
وجاذبيتها لا تقاوم ، لكن عقلها مثل اللبن . . أبيض .
وهى تهتم بأنوثتها . . لابد أن جدتها نصحتها بذلك .
وهى تعرف كيف تهتم بثيابها . وتناسق مكياجها . . ونظافة أظافرها . . لكن يبدو اهتمامها أكبر بكوب عصير قصب .

ولابد بعد ذلك أن يكون أسمها على مسمى . . ندرت . . أو نفيسة .

وكما ظهرت فجأة ، اختفت فجأة . . نظرت إلى ساعة يدها ، ثم استأذنت وقامت ثم تلاشت . . لا أكثر ولا أقل . . وفى ثوان خاطفة ، وقبل أن تفكر كيف تتصرف ولا ماذا تقول . . فهل كنت أحلم ؟ هل كنت تحت تأثير مخدر أذيب فى القهوة ؟! . . إن الواقع أحيانا يبدو أغرب من الخيال . . واللغـز الذى تفرضه المرأة على الرجل قد يشعر به بعد سنوات من معرفتها لا بعد لحظات من رؤيتها .

إن كانت شريرة ، فهى قادرة على البراءة ، وإن كانت بريئة ، فهى أرادت أن تتسلى وأن تسلى جدتها . . أرادت أن تتسلى بين محاضرتين أو حتى تفتح المحلات . . أو أرادت أن تصنع حكايات ترويها لجدتها . . إن كان لها جدة .

ولا أعرف كم مضى من الوقت وأنا أفكر ، وأفسر ، وأحلل . . كل الذى أعرفه أن قنصلنا فى استنبول دخل الكافتيريا هو وزوجته ، واننى أخـذتـه بالأحضـان ، فقـد كان زميلى فى كلية الاقتصـاد والعلوم السياسية . . كما كان رفيق سهـر فى الخرطوم ، التى عمل فيها ، بينما كنت أتردد عليها كثيرا وقت أن كنت مسئولا عن تحرير مجلة «الوادى» التى كان يحررها ويصدرها صحافيون سودانيون ومصريون معا . . وأغلقت بعد أن ارتفع صوتها وتوزيعها أيضا .

كان بيننا موعد . . وقد جاء فى موعده . . وكنا سنذهب إلى بيته لنأكل ، وندردش ، ويقول لى ما لا أعرفه ، وأريد أن أعرفه . . ولأنه دبلوماسى مثقف ، وماهر ومتحمس فقد وضعنى فى بيته وسط صحافيين

ودبلوماسيين وأساتذة جامعة أتراك . . ولأننى لا أترك ما يمر بى بسهولة ، فقد رويت لهم حكاية «ندرت» . . وقد ضحكوا طويلا . . ودخنوا كثيرا . . وبذلوا كل ما فى وسعهم لكى أستريح .

وعندما أنتهت السهرة ـ الندوة فى الفجر ، كنت قد استرحت فعلا .

فقد اقنعونى بأن «ندرت» ليست فتاة نادرة . . وانها فتاة تركية طبيعية . . صريحة . . لا تعرف اللف ولا الدوران . . ويمكن أن تصفها بالسذاجة أن لم تعجبك كلمة البراءة . . إنها نموذج الفتاة التركية التى تعبر بمظهرها وتصرفاتها عن الاعجاب بالغرب ، وتشد أعماقها إلى تقاليد الشرق . . وإلى أساطير جدتها . . وإلى سلطان العائلة . . إنها فاترينة غربية لمحل يبيع بضائع شرقية .

إنها ترتدى الجينز ، وتدرس الفلسفة وعلم النفس ، وتعمل فى كافة مجالات الحياة ، لكن رغم ذلك فهى إمرأة : . والمجتمع يعرف ذلك أيضا . . لا يتعامل معها بخشونة . . ويأخذ بيدها إذا ركبت الاتوبيس ، وإذا نزلت منه . . ويتركها تتقدم الطوابير ، ولا يخدش حياءها بكلمة أو حركة . . انه يرى انها مخلوق رقيق . . يجرحه النسيم . . ويدمى وجهه الهواء . . وهو يرى انها انسان يستحق الاحترام ، لأنها الأم والجدة والزوجة والابنة .

واحترام المرأة عادة تركية قديمة . . فالزجل زمان كان يقاتل ، والمرأة كانت هى التى تعمل ، وتعد الطعام ، وتربى الأولاد . . ولأن الأب غائب فى ميادين القتال فالسلطة للأم . . والكلمة للأم والخوف من

الأم . . ولأن الجـدة هى أم الأم ، فهى سلطة فوق السلطة . . هى السلطة الأعلى . . هى السلطة المطلقة . . ورغم أن الرجل التركى خلع ثياب الحرب ، وكسر سلاحه وأصبح موظفا ، فإن إعادة السلطة إليه فى الأسرة كانت تحتاج إلى انقلاب لم يقم به ، ولم يفكر فيه ، فهو مستريح من هذا العبء . . كما أنه تعود على الطاعة وهو جندى وهو موظف ، وهو زوج . . لذلك فالرجل التركى مقاتل شرس ، وموظف مطيع . . وزوج وديع . . والرجل المصرى أيضا . . والشعوب المقاتلة كذلك .

وقد تمنى نابليون أن يحتل تركيا ، ومصر وكان يرى أن من يسيطر عليهما يسيطر على الدنيا بأسرها . . وعنده حق ، فتركيا همزة وصل بين آسيا وأوروبا ، ولا يفصل بينها وبين أفريقيا سوى البحر المتوسط . . ومصر نقطة تلتقى عندها الطرق الكبرى . . وكان نابليون يرى أن المصريين والأتراك مقاتلون . . مع أن المصريين فلاحون ، والأتراك رعاة . . لكنه رشحهم للقتال لأنهم يجيدون الطاعة . . وينفذون الأوامر دون جدل . . ويعتبرون رضاء قادتهم منتهى الشرف . . والمقاتل الجيد فى الحرب هو موظف جيد فى السلم . . يطيع الرؤساء . . وينفذ التعليمات . . وينحنى للأقدم درجة . . ويطرق الباب بنعومة ، ولا ينسى أن يزرر جاكتته وكلامه ، ولا يعرف سوى كلمة حاضر . . وحاضر كلمة تركية . . وأفندم . . وتمام أيضا . . ونحن نستخدم هذه الكلمات فى دواوين الحكومة . . وأحيانا فى بيوتنا وحياتنا الخاصة .

ونحن نصف زوجاتنا بالحكومة . . والسخرية واضحة . . لكنها سخرية لا تخلو من الحقيقة . . والأتراك يصفون زوجاتهم بنفس

الوصف ، لكن دون سخرية . . والزوجة هى السلطة إذا أنجبت أى إذا أصبحت أما . . وتصبح السلطة العليا لو تزوج أولادها . . وتصبح السلطة الأعلى لو أنجب الأولاد وأصبح لها أحفاد . . لأن العائلة تكبر . . والمشاكل تتزايد . . والرغبات تتقاطع ، ولابد من سيطرة أكبر وأشد .

أن الأسرة تحكم تركيا . . والأم تحكم الأسرة . . والجدة تحكم الأم . . إذن الجدة تحكم تركيا . . الكلمة كلمتها والشورة شورتها . . هى التى تقرر . . وهى التى ترفض . . هى التى تختار لأولادها الزوجات ولبناتها الأزواج . . وهى التى تصر على أن يعيش الجميع معها فى بيت واحد . . بيت العائلة . . أو البيت الكبير . . وهى التى تقاطع الابن المتمرد الذى يستقل بحياته . . جزء من مملكتها نُزع منها ولا يمكن أن تقبل ذلك بسهولة . . وهى تغضب على الابنة التى تنجب بحساب . . لأنها تحرمها من رعايا أكثر .

والأسرة التركية لا تعترف بتحديد النسل .

زيادة السكان ليست المشكلة . . فمساحة البلاد شاسعة . . أكثر من ٧٨٠ ألف كيلو مترمربع ،وهى أكبر من مساحة أى دولة أوروبية باستثناء روسيا . . وهى تشترك فى الحدود مع بلغاريا وسوريا وإيران وروسيا ، وتطل على البحر الأبيض ، والبحر الأسود وبحر مرمرة ، ويفصل بينها وبين اليونان ـ خصمها اللدود ـ بحر إيجة الذى فاض بدماء الطرفين .

والمساحة الشاسعة ، تضاريسها متنوعة . . جبال هضاب . . سهول .وديان . . سواحل . . صخور بركانية . . صخور ساحلية . . أراضئ تجاوز الأنهار . . زراعة تقوم على الأمطار . . أكثر من ١٠٪ من الشعب فلاحون . . و٢٨٪ من الدخل القومى من الزراعة . . ونحن نعرف أن الياميش يأتى من تركيا . . والحشيش والأفيون أيضا . . لكننا لا نعرف انهم يزرعون القطن والقمح . . وأن كان من السهل استنتاج انهم يزرعون الخضر والفواكه .

وإذا كنا نهتم بالياميش التركى ، فلابد أن نعرف أنه يُزرع فى غابات جميلة ، وشهيرة ، تقع على سلاسل جبال بونتس التى تلف حول البحر الأسود ، وتنحدر مع المنحدرات هناك . . حيث أشجار البندق واللوز والجوز . والحصول على ثمار هذه الأشجار مسألة محفوفة بالمخاطر ففى هذه الغابات يعيش الدب ، والذئب ، والفهد . . وفى هذه الغابات يعيش الغزال ، و٥٠٠ نوع من الطيور .

وأنصحك أن لا تجعل زوجتك تقرأ هذه الحقائق إذا ما قررت السفر إلى تركيا ، لأنها ستصر على أن تشترى لها قطعة من الفرو الطبيعى ، إذا لم تصر أن تذهب معك ، لتختارها بنفسها . . وإذا قرأت زوجتك وأصرت فلا تنزعج فالفرو الطبيعى رخيص فى تركيا . . أو بمعنى أدق أرخص فى تركيا . . أرخص من أوروبا . . وجلد الشمواه أيضا .

وبجانب صناعة الجلود ، فى تركيا ثروة حيوانية ، وثروة معدنية . . فحم ، وحديد ، وبترول . . وفيها صناعات متنوعة . . وشبه متطورة .

مساحة كبيرة ، وموارد متنوعة ، فلماذا يحددون النسل ؟

ثم . . هناك سبب أهم يفرض عدم تحديد النسل ، هو أن أغلب الأطفال هنا يموتون خلال العامين الأولين لولادتهم . . يموتون دون مرض . . ورغم الرعاية . . وهى ظاهرة محيرة . . أو «شوطة» غريبة ، حيرت الأطباء فى تركيا والعالم ، وعجزوا عن فهمها أو تفسيرها . . هل هو عيب خلقى ؟ هل عوامل الوراثة هى النسب ؟ هل زواج الأهل والأقارب السبب ؟ . . لا أحد يَعرف السبب بالتحديد حتى الآن !

إن الأم التركية لا يعيش لها عادة سوى ثلث الأطفال الذين تنجبهم ، لذلك . . فهى لا تتوقف عن الانجاب . . طفل وراء طفل . . حتى سن اليأس . . والغريب أن سن اليأس يمتد إلى سن الخمسين أحيانا فى بعض المناطق الريفية والجبلية . . لغز آخر يحير الأطباء . . أو هو تعويض من الله . . الله أعلم !

ولأنهم متعصبون للأولاد أكثر ، فالولد يلبسونه ملابس البنات بعد الولادة منعا للحسد . . ويسمونه باسم وينادونه باسم آخر ، منعا للحسد أيضا ، ونحن فى مصر نفعل ذلك فى الريف وفى الأحياء الشعبية .

ولأنهم يفقدون ثلثى أطفالهم يُضيع نصف دخل الزوج على أطباء النساء ، ومستشفيات الولادة وعلى الأطباء النفسيين أيضا .

فالأم تضع طفلها ثم تبدأ حالة القلق والتوتر والترصد والترقب ، وقبل أن تهدأ تكون حاملا وعندما تضع الطفل الجديد تعيش نفس

المشاعر من جديد . . وتتكرر الاضطرابات مع الطفل الثالث وقبل أن تفكر فى انجاب الطفل الرابع تكون فى حاجة ملحة إلى الطبيب النفسى .

صراع خفى مع المـوت تعيشـه المرأة التركية . . صراع مع وحش مجهـول يتغـذى على الأطفـال . . صراع شديد القسوة تدفع ثمنه من أعصابها وجيب زوجها .

وقبل الزواج ليس أفضل من بعده . .

فهى قبل الزواج محكومة بالتقاليد ، وخاضعة لنفوذ وتحكم الأسرة ، ومهددة بالتشهير لو تجاوزت حدود الأدب .

انها إمرأة مسكينة فعلا . .
مع انها مثيرة وجذابة جدا .

على الأقل هى نموذج للجمال الشرقى التقليدى . . البشرة البيضاء المشوبة بحمرة خفيفة . . شعر الخيل المنسدل من الرأس إلى منتصف الظهر . . الصدر القوى ، النافر ، الناهد ، المنافس لصواريخ حلف الأطلنطى الذى تشترك فيه تركيا ، والمتحكم فى نفسه بصعوبة حتى لا ينفجـر ويمـزق الثياب . . والجسم الممتـلىء الذى يصلح للدعاية عن منتجـات الألبـان . . الـزبـد . . خصوصا . . الصوت الهامس الذى يخجـل من نصف الكلام ويتعامل بحذر ورفق مع النصف الآخر . . الابتسـامـة النـاعمـة ، الخـاطفة . . أو قل نصف الابتسامة . . لأن

الابتسـامـة الكاملة تحتاج إلى شجاعة وتحدٍّ ، وعيون جريئة ، الطاعة النادرة . . الإنصات الجيد . . والقدرة على صنع الطعام الشهى .

ولابد أنها إمرأة تركية تلك التى قالت أن الطريق إلى قلب الرجل معدته . . لابد بالتحديد أن تكون إمرأة تركية .

ولابـــد أنها امـرأة تركية أيضـا تلك التى سجلت باسمهـا مرض «النظافة» أو أرتكاريا النظافة أو هوس النظافة . . وقد يصل هذا المرض إلى حالـة اللا علاج ، عندما تبدأ المرأة التركية بغسل النقود ، ويعدم استعـمال الصفحـة الأولى من الجـريدة لأن يدا أخرى أمسكت بها ، وباستهلاك مطهرات وصابون وكلونيا ، بضعف مرتب زوجها .

وفى الـدول التى احتلهـا الأتراك . . وخاصة مصر ، سمعة المرأة التركية أفضل من سمعة الرجل التركى فهى رقيقة وهو متوحش . . وهى ناعمة وهو متغطرس . . وهى ماهرة وهو ضيق الأفق وبقدر ما كره الناس فى مصر الأتراك بقدر ماينسبون أنفسهم إليهم . . فالمرأة الجميلة تدعى أن السبب هو العـرق التركى الذى يمتد إلى جدودها ، والدم التركى الذى لايزال يجرى فى عروقها .

ولكن . . .

هذا لا يمنع أن المرأة التركية إمرأة شرسة عند اللزوم . . وعنيدة عند اللزوم . . وسليطة اللسان عند اللزوم ، وأنت تستطيع أن تحدد بنفسك المقصود بعبارة «عند اللزوم» .

ومن الأفضل لـك لـو أردت أن ترى وجهها الطيب فقط أن تأخذها من قصيره وتطلب يدها ولو قبلت فاعرف أن أمك دعت لك ، وأن السماء استجابت لها . . فهى ست بيت من الطراز الأول . . تجيد الطهى . . وشغـل الابـرة . . والتـطريز والحياكـة . . وتعـرف كيف تتعـامـل مع الرجل . . رجلها .

وهى تغنى إذا كان صوتهـا جميلا . . وتـرقص إ ذا كان جسمهـا أجمل . . وتعزف على آلة موسيقية إذا لم تغن أو ترقص . . وهذا أضعف الاهتمام .

والأسرة التركية تعتبر تأهيل الفتاة للزواج جزء من تربيتها . . وهذا يبدأ قبل سن البلوغ ، ولا ينتهى إلا ليلة الزفاف . . إنها تتعلم كيف تعنى بنفسها . . وكيف تتعامل مع زوجها . . وتعرف متى تناقشه . . ومتى تحتمله دون أن تفتح فمها . . إنها شهادة أخرى تحصل عليها الفتاة بجـانب شهـادة الجـامعة . . والأسرة المصرية لا تفعل ذلك . . أو فى أفضل الأحوال تعلم الفتاة فقط كيف تصنع صينية المكرونة فى الفرن .

ولأن الأسرة التركية ، لم تعد مثل الماضى . . ولأن الحياة تعقدت ، وضـاع الوقت فى السينما والمسرح والسياحة والتليفزيون ، بدأ الاهتمام بالفتاة على هذا النحو يقل . وإن كان التليفزيون يعوض ذلك ببرامج متخصصة . . والاذاعة والمجلات أيضا .

ثم . . أن هناك مدارس خاصة بدأت تعلم البنات هذا الفن . . فن التعـامـل مع الـزوج . . أنها مدارس لمحـو أمية المرأة والزوجة . .

مدارس تجعل الفتاة تقرأ الرجل وتحفظه . . ولأن الرجل متغطرس ، ومغرور لم يفكر فى مدارس مشابهة له . . مع أن فهم المرأة أصعب . . كل العالم من قديم الزمان يقول ذلك . . مع أن المرأة تحتاج إلى جامعة ، لا إلى فصول محو الأمية . . كل الأدباء والحكماء والفلاسفة يقولون ذلك . . وأنا أيضا .

ولأننا سنسخر من هذه الفكرة ، فأنا لا أقترح تطبيقها فى مصر . . مع أننا فى مصر نعيش مرحلة فوضى فى العلاقات الزوجية . . مرحلة فيها الزواج أقل والطلاق أكثر . . مرحلة فيها الزواج يتم بسرعة السلحفاة والطلاق يتم بسرعة الأرنب .

ثم . . أننا أصبحنا لا نطيق أى فكرة جادة . . إلا إذا كانت متعلقة ببطوننا . . فكان أن أصبحت عقولنا مجرد طبق شهى نأكله مسلوقا بالليمون . . أو مقليًا بالبيض والبقسماط المسحوق . . بانيه .

إن هذه المدارس يشرف عليها علماء نفس وخبراء اجتماع وتمنح المرأة شهادة بصلاحية الزواج وتجرى هذه المدارس اختبارات نفسية للشباب فى فترة الخطوبة ، وهى تقدم النتائج ، ومعها احتمالات النجاح والفشل . . وكل واحد حر فى النهاية .

لذلك . . فالطلاق أقل فى تركيا من باقى الدول الأوروبية .

فالفتاة تقبل على هذه المدارس ، وتستفيد منها ، ثم أنها بالطبيعة امرأة مخلصة جدا . . أكثر نساء الأرض إخلاصا ووفاء .

وهى مستعدة أن تجلس فى بيتها تربى الأولاد دون أن تشكو ، ودون

أن تفكر فى شخص آخر ولو تركتها سنين طويلة . . ولو عرفت نصف نساء الكرة الأرضية عليها .

وهذه شهادة فى حقها . .

لكنها شهادة يدفع ثمنها زوجها غاليا .

فهى لن تخونه لو خانها . . لكنها ستخاصمه حتى الموت . . ستقدم له الطعام . . ستربى له الأولاد . . ستحافظ على شرفه . . لكنها لن تكلمه . . ستعيش معه فى حالة صمت دائم إلى آخر يوم فى حياتها أو فى حياته .

عقاب صارم جدا . . لا يمكن لبشر احتماله . . إعدام بالمقاطعة . . حرب تجويع عاطفية . . . انهيار عصبى بلا رد فعل .

والزوج التركى يعرف ذلك، ويعرف أن زوجته ستمشى على طريق السيدة العذراء حتى النهاية، لقد طلب الله من السيدة العذراء بعد أن وضعت السيد المسيح ألا تكلم الناس . . أياما . . أما صمت المرأة التركية فهو سنوات وسنوات . . وإذا كان المسيح تكلم نيابة عن العذراء وذُهل الناس . . فالأولاد هنا لن يتكلموا ، وسيتعذب الزوج والأب أكثر وأكثر .

ولأن الوقاية خير من العلاج ، فالزوج يمشى على العجين دون أن يلخبطه . . ويضطر للاستقامة من باب مجبر أخاك لا بطل . . ولا داعٍ للنزوة حتى لا يتعرض إلى إضراب زوجته عن الكلام معه .

ما رأيك . . هل تتزوج من امرأة تركية ؟

عرفت الاجابة .

إستنبول .. إستنبول !

من لم ير إستبول .. لم ير تركيا ..
من عاش استنبول ، كأنه عاش تركيا كلها .

استنبول هى الكل فى الجزء .. أو هى الجزء الذى يغنيك عن الكل .. ولو كانت تركيا كتابا فإن استنبول هى الفهرس والعنوان .. ولو كانت تركيا خزانة حديدية فإن استنبول هى المفتاح .. ولو كانت تركيا إمرأة فإن استنبول هى سر أنوثتها .

التاريخ .. البشر .. البحر .. الجبل .. المسجد .. الضمير .. الاسطورة .. المغامرة .. الجرأة .. الهداية .. الذكرى .. الأمل .. النصر .. الهزيمة .. التوسع .. الموقع .. الشعر .. الابداع .. الحضارة .. هذه هى إستنبول .

مدينة لها تاريخ .. مدينة صنعت التاريخ .

مدينة لها مذاق . . مدينة لا يمكن أن تنسى مذاقها .

كانت عاصمة بيزنطة حوالى ألف عام . . تحت اسم «القسطنطينية» . ثم أشهرت إسلامها وأصبحت عاصمة الامبراطورية العثمانية ، لمدة ٧٠٠ سنة تحت اسم الباب العالى ، أو الاستانة ، ومنها جاءت كلمة إستنبول .

نحن الآن فى سنة ٣٣٠ ميلادية . . بالتحديد فى ١١ مايو من تلك السنة . . فى ذلك اليوم افتتح الامبراطور قسطنتين الأكبر مدينة القسطنطينية على الشاطىء الغربى للبوسفور لتكون عاصمة الامبراطورية الشرقية التى أصبحت فيما بعد بيزنطة . . كانت الامبراطورية الرومانية تنهار . . ترك الأباطرة السيوف وتفرغوا للشراب والمتعة ، وفقدت روما نفوذها . . وحاول قسطنتين الأكبر تجديد شباب الامبراطورية بإقامة القسطنطينية لتصبح عاصمة بدلا من روما . . لكن المحاولة . . لم تنجح . . فبعد أن مات ولمدة قرنين من الزمان كانت الانقسامات، والصراعات ، والحروب الأهلية تهد كيان الامبراطورية . . وكان من الطبيعى أن يكون التقسيم ثمنا للسلام أصبح هونوريوس امبراطورا على الغرب . . وتولى أركاديس الامبراطورية الشرقية .

وبهذا التقسيم ، ولدت المذاهب المسيحية . . الكاثوليكية فى الغرب والارثوذكسية فى الشرق . . وتوالت بعد ذلك الانقسامات .

انفصلت كنيسة بيزنطة عن كنيسة روما . . أصبحت كنيسة مستقلة يديرها ويسيطر عليها ويمنح بركتها بطريرك القسطنطينية .

وكـان بطريرك القسطنطينية يدير شئون رعاياه من كنيسة «سان صوفيا» أو القـديسة صوفيا . . وقد احترقت فى القرن السادس ، هى ومجلس الشيوخ ، وأعادها إلى الوجود الامبراطور جستيان ، الذى اشتهر باحترام القانون ، وكان أول من كتب القوانين ، وشرحها وفسرها . . ووضع بذلك بذرة كلية الحقوق .

أشرف على إعادة بناء الكنيسة الكبرى مهندسون سوريون ، جعلوا قبتها ترتفع ٥٠ مترا ، ويمتد قطرها إلى ٣١ مترا .

وقـد أصبحت مسجـدا فيما بعـد . . وهى الآن لا مسجـد ولا كنيسة . . إنها متحف من طراز نادر يجمع بين الفن المسيحى ، والفن الاسلامى .

المبنى له سور حديد قد م من الخـارج . . ثم حديقة صغيرة . . جميلة تمتـلىء بالخضرة والأزهار وفى المدخل صورة للسيدة العذراء وهى تحمـل السيد المسيح ، مرسومة بألوان الذهب ، والصورة فيهاملائكة ، والمـلائكة يرفرفون حول المسيح وأمه ، وهـم يحملون بوابات القدس ، وأوراق الـزيتـون . . والمـدخـل ضيق جدا ، لكنـه يؤدى إلى قاعـة فسيحـة . . هى الصحن . . صحن الكنيسـة ـ المسجـد . . والقاعة مغـطاة بالقبـة . . والقبـة مزخرفة بنقوش مسيحية ، قديمة حولها لفظ

الجلالة واسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأسماء لأبى بكر وعمر ، وعثمان ، وعلى ، والحسن والحسين رضى الله عنهم .

لقاء نادر فعلا بين الاسلام والمسيحية .

لقاء متسامح بين مسجد وكنيسة . . بين صورة العذراء وأسماء الخلفاء الراشدين . . بين الزخرفة الاسلامية والعمارة البيزنطية .

وقد ذهلت عندما رأيت ذلك . . وذهلت أكثر عندما قالت لى سائحة ألمانية عجوز :

- من قال أن المسلمين أشرار ؟ لقد حافظوا على صورة يسوع ، وصلو فى خشوع إلى الله ، دون أن يغضبوا مما فوق رؤوسهم .

كنت قد قابلتها فى المدخل صدفة ، وعندما أمسكت بيدها لتصع الدرج ، أصبح الحوار الانسانى متاحا بسهولة .

وعندما تساءلت عن الذى وصف المسلمين بالتعصب ، وعدم التسامح ، لم ترد فأغلب الظن أنها كانت تناقش نفسها أو تحاسبها . أو على الأقل تراجعها .

لقد جاء المسلمون ، وسيطروا على بيزنطة ، دون أن يقربوا من الكنائس . . إلا هذه الكنيسة ، التى كانت قد فقدت صفتها الدينية ، وأصبحت رمزا للسلطة الزمنية ، حيث كان الأباطرة يتوجون فيها وقادة الجيوش يخرجون منها إلى القتال . . وكل مؤامرات الصراع على الحكم تُولد وتُدبر فيها فكان لابد من أن يتغير الرمز بعد أن تغيرت السلطة .

فجــأة . . . .

قالت السيدة العجوز :

ـ انظر . . يبدو أن المسلمين أشرار فعلا . . انظر لقد حرقوا رسومات القديسين التى كانت على الجدران .

كانت على ما يبدو لا تريد أن تقتنع بأنها على خطأ . . كانت تفتش عن دليل يؤكد أنها على صواب .

سألتها فى هدوء :

ـ أى اللغات تجيدين ؟

ـ الألمانية .

ـ وأنا أيضا . . تفضلى .

فتحت لها كتـابـا عن المبنى كان معى ، وطلبت منها أن تقرأ . . وجلست العجوز على أقرب مقعد وقرأت . .

ما طلبت من المرأة أن تعرفه هو ما عُرف فى تاريخ المسيحية بمعركة الصور ، أو حرب الأيقونات . . لقد بدأت هذه الحرب داخل المسيحية البيزنطية فى القرن الثامن الميلادى . . فى عهد الامبراطور ليون الثالث الأيسورى . . إن رجال هذا الامبراطور الذى جاء من سوريا . . شنوا حملة قوية لتـدمـير صور القـديسين ، واللوحات المرسومة التى تتخيل المسيح والسيدة العذراء . . كانوا يرون أن هذه الصور حرام . . لأنها تصور من لا يجوز تصويرهم . . وكان أن حرقوا الجدران المرسومة ودمروا الأيقونات ، ومزقوا الكتب المقدسة .

ومن جانبه وجد الامبراطور ليون الثالث فى هذه الحرب الدينية فرصة للتخلص من نفوذ رجال الدين والرهبان ، ومحاربة ثرائهم الفاحش .

وانقسم مسيحيو بيزنطة على أنفسهم . . فريق مع الأيقونات وفريق ضدها . . فريق مع الامبراطور وفريق مع رجال الكنيسة . . فريق مع السلطة الزمنية وفريق مع السلطة الروحية . . واستمرت هذه الحرب ١٠٠ سنة كاملة . . قامت خلالها ثورات ، وذُبح المئات ، وفقدت الامبراطورية قوتها وتماسكها .

لم تنته هذه الحرب إلا على يد امرأة اسمها ثيودورا ، كانت وصية على العرش ، بعد أن مات زوجها الامبراطور ثيوفيل . . فرضت هدنة على الصراع الرهيب ، ثم فى الوقت المناسب أحيت عقيدة الأيقونات من جديد . . وبعد شهور أصبحت امبراطورة .

كانت ثيودرا إمرأة ساحرة . . جريئة . . تعرف كيف تبرز جمالها . . ورغم إنها داهية سياسية فإنها أول إمرأة عرفت تسريحة «الشينيون» وأول إمرأة زينت شعرها بحبات اللؤلؤ ، والزهور الفاقعة الألوان . . وأول إمرأة رسمت حاجبيها بالفحم ، وحمرت خديها بالبودرة . . وقد دخلت تاريخ التجميل باطلاق اسمها على ماركة من مستحضرات التجميل ، فعرفتها النساء من خلال أقلام الروج ، وأقلام رسم الحواجب ، وعلب البودرة وظلال الجفون ، وهذا ظلم لها لأنها اشتهرت كأنثى لا كامبراطورة غيرت مجرى التاريخ .

قرأت العجوز الكتاب . . ولم تفتح فمها . . ولأنها عجزت عن

الكلام فقد أسرعت تخرج علبة سجائر من جيبها ، ولأننى لا أدخن فى مكـان مقـدس ، حتى ولـو تحول بقـرار حكومى إلى متحف ، فاننى اعتذرت عن السيجارة التى قدمتها . . ولأنها أحست بالحرج تماما ، فقد ذابت وسط الزحام .

خارج المتحف ، وجـدت نفسى أجلس على مقهى وأكمـل قراءة كتاب تاريخى آخر عن استنبول . . وسمحت لنفسى بالتدخين . . ولا أعـرف كم دخنت من السجـائـر . . ولا كم احتسيت من فنـاجـين القهوة . . ولا كم مرة رفعت رأسى فيما حولى . . لكن ما أعرفه أننى أنهيت الكتاب والشمس على وشك الغروب .

والكتـاب يقـول أن بيزنـطة كانت اقطاعيات ، يعيش فيها ملاك الأرض على دماء الفلاحين الفقراء مقابل ضرائب تُدفع إلى الامبراطور ورجال الدين .

ولو كان الفقراء قد ثاروا ضد تحطيم الأيقونات فانهم لم يثوروا ضد الظلـم ، لأن الثورة ضد الظلـم كانت ثورة ضد الكنيسة أيضا . . ولأن الفقـراء لا يملكون القدرة على القتال ، فقد أصبح خطر الأتراك أمرا واقعا فى القرن الحادى عشر ميلادى . . وضاعف من حجم هذا الخطر أن الأباطرة الذين حكموا فى ذلك الوقت كانوا ضعفاء ، ثم أن الانهيار السياسى والاقتصادى بدأ بعد فشل الحملات الصليبية على القدس ، وتحـول قادتهـا إلى بيزنـطة ، حيث قامـوا بغـزوهـا وسلبهـا ، واقتحام القسـطنطينية وإعادتها إلى نفوذ البابا فى روما مرة أخرى فى سنة ١٢٠٤ . .

لكن نفوذ البابا فى روما بقى نفوذا دينيا فقط أما السلطة الزمنية فقد توزعت وانقسمت بين الملوك والأمراء الغربيين .

وعاشت القسطنطينية قرنين من الألم والضعف والقسوة والظلم والفساد ، وعندما سقطت المدينة فى يد المسلمين فى ٢٦ مايو ١٤٥٣ لم يتردد الناس فى استقبالهم استقبال المخلصين ودخل السلطان محمد الثانى المدينة ، وغير اسمها إلى إستنبول .

وأشرقت شمس الامبراطورية العثمانية . . وبعد قرون غربت . . وبسقوط الخلافة ، وهروب السلطان وإعلان الجمهورية ، نقل كمال أتاتورك العاصمة من استنبول إلى أنقرة . . وكان ذلك فى سنة ١٩٢٣ .

لكن . . رغم ذلك لم تفقد استنبول سحرها القديم ، ولا تاريخها الطويل ، ولا مذاقها الخاص الذى انفردت به .

بقيت سيدة المدن التركية .

بقيت مستودع الحضارة الانسانية من عهد الرومان إلى عهد الجنرالات .

كنز من التاريخ ، تتناثر محتوياته فى كل شبر فى استنبول . . ولو نطقت الحجارة ، والجدران ، ومياه البحر التى تحاصرها ، لما توقفت عن الكلام . . والعبارة الأخيرة لناظم حكمت،وقد قالها دلالة على أن استنبول مدينة عريقة ، عاشت التاريخ ولم تفصح عن أغلبه ،أو دلالة على أن ما نعرفه من التاريخ غير الذى جرى . . فالتاريخ سجل بشر ، والبشر

لهم أهداف ومصالح ، أما البحر والجدران والحجارة فأشياء . . والأشياء لا تكذب . . لكنها أيضا لا تنطق .

ولأن استنبول مدينة لها تاريخ ، فقد هرب أتاتورك منها . . خشى على تاريخه . . أراد أن يستقل بتاريخه حتى لا يُصبح مجرد فصل فى كتابها الضخم . . منتهى الـذكـاء . . لكنـه ذكـاء لا يخلو من التعسف والـديكتاتورية . . فقد قرر أن لا تكون العاصمة . . وقرر أن تصبح بدايته نهايتها . . منتهى الذكاء والديكتاتورية أيضا .

وهناك أغنية شهيرة اسمها استنبول . . والأغنية تتحدث عن أيام استنبـول القـديمـة . . عنـدمـا كانت مدينة شابة ، تغرى بقية المدن بسحـرهـا . . وتفـرض عليهـا أن تتبـع خطاهـا . . والأغنية ناعمة ، ومـوسيقـاها حزينة ، والمطرب الذى يغنيها يتوقف بين فقرة وأخرى ، ويقول بصوت شجن . . استنبول . . استنبول . . ولا تعرف هل ينادى المجد القديم . . أم يبكى على المجد الذى كان . . ولا أحد يحاول أن يعرف لأن الذين يسمعون الأغنية ، يرقصون على موسيقاها . . ويجدون فى ذلك متعة . . إنها متعة الرقص على الأنقاض والأطلال وقطع الزجاج المتناثرة على الأرض بعد تهشم إناء تاريخى ، أثرى ، نادر .

ورغم ذلك فهذه الأغنية تحية لاستنبول . . تحية فنية ، رقيقة . . أما بقية الفنون الحديثة فقد أهانت هذه المدينة . . وخاصة فن السينما ، الذى صورها على أنها مدينة للصوص ، والمهربين ، وتجار الأعراض ، ومدمنى المخدرات . . مع أنها ليست كذلك تماما . . أو أن ما فيها من

نصب واحتيال ومخدرات أقل بكثير مما فى مدن تبدو مهذبة على الشاشة مثل لندن وباريس وواشنطن .

وركبت السينما المصرية هذه الموجة ، وصور فريد شوقى فى استنبول فيلما اسمه «لصوص على موعد» كله ضرب ، وحشيش ، ومغامرات . . والمذهل أن اسم كاتب السيناريو كان على نفس اسمى ، مع أننى لا يمكن أن أفكر فى هذه الاهانة التى كانت نوعا من الانتاج المشترك بين مصر وتركيا .

فأنا أعشق استنبول .

وقد وقعت فى هواها من أول نظرة . . والحب من أول نظرة يعنى أنك أحببت دون أن تعرف أى شىء ، ولا حتى الاسم . . حب بلا عقل ، ولا أصول . . لكنه منعش ، يقلب كيانك ، ويجعلك مشدودا كالمنوم مغناطيسيا . . وأنا أحببت فى لندن عقلها ، وفى باريس شقاوتها ، وفى نيويورك جنونها ، وفى فيينا براءتها . . وفى الخرطوم طيبة قلبها . . وأنا أحببت استنبول دون أن أعرف السبب فهل هذا هو الحب الحقيقى ؟!

ولاننى لا أومن مثل فريد الأطرش ـ بأن الحب من غير أمل أسمى معانى الغرام ، فقد حولت عشقى لاستنبول إلى عنقود من العنب أمص رحيق حباته ، حبة ، حبة . . طبق من المانجو ألتهم ثمراته حتى القشر ثمرة ، ثمرة . . كتاب مثير لا أتركه حتى أنتهى منه ، وحتى أستمتع بعبارته ، عبارة ، عبارة .

وأغلب الظن أن سر هذا العشق هو طابع استنبول الشرقى . . فهل وجدت فيها صورة أخرى من القاهرة ؟ هل وجدت فيها الاحساس بالأمن والبيت والوطن ؟

إنها صورة « اسكتش » من القاهرة أحيانا . . ليست صورة طبق الأصل ولا بالكربون دائما . . أى مجرد ملامح عامة ، لكن لا تفاصيل متشابهة ، حتى ولو كان فى المدينتين مساجد ، وبخور وزحام وماسحو أحذية ، وفقراء ، وباعة متجولون وعطور نفاذة ، ونساء محجبات ، ورائحة شواء .

واستنبول عدد سكانها ربع عدد سكان القاهرة ، ومثل عدد سكان أنقرة وأزمير . . لذلك فمشاكلها أقل من مشاكل القاهرة . . وترهلها أقل من ترهل القاهرة . . لكنها مثل القاهرة . . . مدينة عريقة . . أقوى من الزمن ، والغزو والعصر الذى نعيش فيه .

وهذه القوة تجعلك عاجزا عن فهمها من أول نظرة حتى لو أحببتها من أول نظرة . . فالحب يقع فى ثانية والفهم يحتاج إلى سنوات .

فهى تبدو للوهلة الأولى كميناء كبير وهام . . والبحر يضمها بين ذراعيه . . الأمواج فوق رأسها كخصلات الشعر ، والسفن التى ترسو بوداعة على الشاطىء تبدو كالمشابك الملونة المغروزة فى الشعر . . والطرق العلوية التى تمرق فوق رأسها تبدو كطوق يلف الرأس .

لكنك سرعان ما تكتشف أنها مدينة سياحية من الطراز الأول . . آثار . . ملاهى . . تذكارات . . وسرعان ما تدرك أن الصناعة نشاط

حيوى أيضا . . مصانع للتبغ والأغذية والكيماويات مثلا ، وقبل أن تودعها ستعرف أن دخلها من الصناعة ضعف دخلها من السياحة وأن دخلها من السياحة ضعف دخلها من الميناء .

ومن الخارج تبدو مبانيها عتيقة جدا ، يغلب عليها طراز معمارى عمره أكثر من ثلاثة قرون ، لكنك إذا ما دخلت أحد هذه المبانى ستفاجأ بأحدث الديكتورات وآخر صرخات المفروشات والأثاث ستجد نفسك فى بيوت ومكاتب ومعارض أوروبية تماما .

والناس عكس المبانى . . مظهرهم أوروبى فى الشوارع وتصرفاتهم تقليدية فى البيوت . . الثياب من باريس . . والمعاطف من لندن . . والسيارات من روما . . لكن التقاليد من تركيا .

وهكـــذا . . . .

تخدعك المظاهر فى استنبول . . ولا تستطيع أن تفهم حقيقتها بسهولة . . فالشكل غير الجوهر ، وكل شىء يتناقض مع نفسه ، ولا يتفق مع ما تراه .

لو كونت رأيا فى شىء ، ستغيره لو تعاملت معه .

لغز . . لغز ليس من السهل فك رموزه . . لكنها مثل أى لغز ستستمتع بحل رموزه . . ولو لم تكن استنبول لغزا ما استحقت الكتابة عنها .

لهذا ، أنا أقول ودائما أنها مدينة يتغير طعمها حسب المدة التى تقضيها فيها . . كل مدة تعطى لها نكهة مختلفة ولو عشت مدة كافية فى

استنبول ولو تعاملت معها بحب لما وجدت فى هذا التناقض الذى تعيشه أمرا غريبا أو شاذا ، أو مثيرا للدهشة والعجب .

لو تذوقت استنبـول حتى النخـاع ، لوجـدت كل تناقضاتها أمرا طبيعيا له ما يفسره ، وما يبرره .

فهى مدينة تقع بين قارتين . .

نصف فى آسيا ونصف فى أوروبا . . الجزء الشرقى فى آسيا والجزء الغـربى فى أوروبـا . . سنـدوتش . . وبين الشطرين مضيق محايد هو مضيق البوسفور . . وبلغة السندويتشات فهذا المضيق مثل المستردة أو مثـل ثمرة خيار «مخلل»،وفوق مضيق البوسفور كوبرى معلق ، يسمى «جولدن بريدج» . . أو الكوبرى الذهبى . . وهو مثل الشوكة التى ترفع بها السنـدوتش . . وهو مثل الكوبرى المعلق عند سان فرنسيسكو . . وطوله مثل عرض البوسفور . . حوالى ١٦٠٠ متر . . ومرور السيارات عليه بتذاكر . . مثل طريق القاهرة ـ الاسكندرية الصحراوى . . وعبوره ينقلك من عالم إلى عالم آخر،من القصور العثمانية إلى الفنادق العالمية . . من الحـوارى الضيقـة إلى الشوارع العريضة . . من أحياء الفقراء إلى أحياء الأثـرياء . . إنـه مثل كوبرى أبو العلا القديم الذى ينقلك من بولاق إلى الزمالك .

أى تناقض تريد أكثر من ذلك ؟ .

مدينة نصفها شرقى ونصفها غربى . . مدينة تضع قدما فى آسيا

وتضـع الأخـرى فى أوروبـا ، وبـين القـدمين مدت بساطاً معلقاً من الحديد ، والأسفلت ليعبر عليه الناس ، والقيم أيضا . . فلماذا لا تعيش فى تناقض ؟

إن أوروبـا ليست آسيا . . والانتقـال بينهما ليس فى سهولة عبور الكـوبرى المعلق . . فالبوسفور لا يفصل بينهما فقط ، وإنما الأفكار ، والعادات ، والسلوك ، والطباع ، أيضا . . لذلك فالتناقض طبيعى بين مادية الغرب وغيبية الشرق . . بين واقعية الغرب ورومانسية الشرق . . فلو كان الغـرب سيارة فالشرق دراجـة . . ولو كان الغرب فيلم سينما فالشرق قصيدة شعر . . ولو كان الغرب بنطلون جينز فالشرق سروال قطن .

وهى مدينة تقع بين بحرين ، متناقضين فى الخواص والطباع وحتى فى الاسم . . البحر الأسود والبحر الأبيض . . وبين البحرين ممر . . والممر ضيق أيضا . . ويسمى «جولدن هورن» أو القرن الذهبى . . وهو شريط ضيق من الماء تقف عنده استنبول .وهى تمسك بيدها خيوط الماء . .

والمياه مصدر الخير . . لكنها أيضا مصدر الغزو . . والبحار بوابات يدخل منها البضائع والقراصنة والغزاة . . والمدن ـ الموانىء مدن مرحة ، خفيفة الظل ، لكن تحت عباءة المرح خنجر يبرز فى الوقت الضرورى . . لذلـك فاستنبول تحب الغرباء ، وتجيد الترحيب بهم والتعامل معهم ، لكنها فى نفس الوقت تخشاهم وتأخذ حذرها منهم . . تناقض آخر فُرض

عليهــا . . ووجــدت نفسهــا فيه . . الـترحيب والخـوف . . الحب والحذر . . المرح والقلق . . والقبلات والخناجر . . إنها مثل فتيات الميناء يعرفن كيف يُثرن لعاب البحارة ، ويعرفن كيف يقطعن يد من يتعرض لهن بسوء .

تناقض يجلب الصداع فعلا . ويفرض نفسه على استنبول منذ أن ولدت .

وهى مدينة تقع بين عصرين . .

عصر السـلاطـين العثمانيين ، وعصر أتاتورك . . وبين العصرين تناقضات لا أول لها ولا آخر . . الجامعة والكتاب . . العمامة والقبعة . . التخت والديسكو . . الحرملك والتليفزيون . . البرقع وبيير كاردان . . الديوان والبرلمان . . الحجاب والسفور . . التقاليد والتقاليع . . الترهل والرجيم . . صراع الديوك وسباق السيارات . . النرجيلة والبايب . . البطش والقانون . . السلطة والمعارضة . .

حيرة اضافية وجدت فيها استنبول نفسها .

مدينــة بين قارتــين وبحـرين وعصرين . . لا مفـر أمـامهـا من الاستسلام للتناقضات . . لا مفر . . ولأن ذلك منذ قرون فقد تعودت على التناقضات وزوارها أيضا . . لا هى فى حالة انفصام الشخصية ، ولا هى تشعـر انها معقـدة نفسيا . . إن ذلـك أصبـح علامة مميزة فى وجهها . . مثل الشعر الأكرت أو الأنف الأفطس أو العين الجاحظة . . البعض يراه عيوبا ، وهى تراه سرا من أسرار جاذبيتها .

لذلك فهى تعرف قدر نفسها مهما كان غيرها . .

فهى ليست العاصمة لكنها أهم وأشهر من العاصمة .

وهى لا تحكم الأتراك إداريا . . لكنها تحكمهم حضاريا ، وثقافيا ، وسياحيا . .

هى ليست مقر الحكومة ، ولا قصر الرئاسة ، ولا قيادة الجيش ، لكنها هى الجامعة ، والمتاحف والأدب والشعر ، والمسرح ، والأحزاب ، والمساجد التى تقترب من السماء وتقرب الناس منها .

هى عروس البوسفور ... زهرة المدن التركية . . وعاصمة الشرق لمدة ١٧ قرنا من الزمان . . أى ١٧٠٠ سنة . . منها ٧٠٠ سنة تحت سيطرة العثمانيين . . وخلال تلك السنوات بنوا ١٢٠٠ مسجدا . . بقى منها الآن ٧٠٠ فقط . . بمعدل مسجد لكل سنة . . وبعض هذه المساجد مقام داخل مياه البحر . . مثل الفنار الذى يهدى السفن . . لكنه فنار يهدى الناس للايمان . . وبعضها شهير جدا . . وأغلبها له تاريخ .

وأشهر المساجد فى استنبول مسجد السلطان أحمد . .

وأكبرها مسجد السليمانية . .

ومسجد السلطان أحمد بُنى فى ٧ سنوات (١٦٠٩ ـ ١٦١٦) وصممه معمارى شهير فى عصره (محمد كار) ونفذه ٢٠٠٠ عامل من مصر وتونس وبلغاريا وتركيا . . والمسجد يتسع لـ ١٧ ألف مصلٍّ ، وله ١٦ شرفة و٦

ماذن و٢٦٠ شباكا و٢٤ عمودا كبيرا من الرخام . . واستخدم فى تغطية الأجزاء العلوية من أعمدته ٢٢ ألف قطعة سيراميك . . والمنبر محفور باليد . . طوله أكثر من ٧ أمتار . . والمحراب مُطعم بقطع من الحجر الأسود . . وفى المسجد عدد كبير من الشمعدانات . . وزن الشمعة الواحدة التى كانت توضع فيها ٥٠ كيلوجرام . . وبالمسجد أيضا ساعة أثرية هدية من الملكة فيكتوريا إلى السلطان أحمد .

وارتفاع المسجد من الأرض إلى القبة ٤٣ مترا . . وقطر القبة الرئيسية ٢٣ مترا ، وحول القبة الكبيرة ٢٢ قبة أخرى صغيرة .

والمسجد مفروش بحوالى ٣٠٠ سجادة كبيرة . . وكل سجادة منها مقسمة إلى سجاجيد صغيرة مساحة كل منها مثل مساحة سجادة الصلاة التى نصلى عليها فى بيوتنا . . واحدى السجاجيد الكبيرة هدية من امبراطور الحبشة السابق هيلاس لاسى .

وكل شبابيك المسجد على استقامة مكة .

وللمسجد طابق علوى كان مخصصا للسلطان وأولاده ، يصلون فيه الجمعة ، والآن تصلى فيه النساء .

تحفة معمارية ، صاغها المسلمون ، وشارك فيها مسيحيو الغرب بساعة الملكة فيكتوريا ، ومسيحيو الشرق بسجادة الامبراطور هيلاس لاسى .

تحفة معمارية أضيفت لباقى مساجد استنبول التاريخية .

إن استنبول مدينة تلفها المساجد والقباب من كل جانب . . حزام من بيوت الله ، جعلها تبدو كمدينة داخل مسجد . . أو كصحن جامع كبير له مئات من القباب والمنارات . . والمساجد التى تراها فى استنبول تبدو ضعف عددها الحقيقى ، ، لأنك تراها شامخة ، كاملة فى كل مكان تذهب إليه .

إن مدينة القاهرة بها الآن أكثر من ألف مسجد ، لكنك لا تشعر بهذا العدد الكبير بسبب الزحام الشديد للمبانى ، وبسبب فوضى البناء التى عمت العاصمة المصرية . .

ثم إن ناطحات السحاب أعلى وأعرض . . حوائط صماء من الأسمنت والألمنيوم ، صدت عن العيون الكثير بما فى ذلك منارات المساجد . .

أما فى إستنبول فلا مبنى يعلو عن مسجد . . مآذن المساجد أعلى بناء فى إستنبول . . والقانون يحرم بناء مبانٍ أعلى من المآذن . . أو يغطى عليها . . وهو قانون نجح فى حماية طابع المدينة ، وحافظ على شخصيتها ، فقد فرض طرزا معينة من المبانى ، وألوانا محددة للطلاء ، وفرض غسل المبانى كل سنتين ، وإعادة الطلاء كل سبع سنوات .

وهذا القانون موجود ، وسارى المفعول فى بريطانيا وتونس ، والمكسيك ودول كثيرة من العالم ليس من بينها مصر . . أم الدنيا . .

إنك بفضل هذا القانون أصبح من السهل عليك أن ترى أجمل

مشهد يمكن أن تراه فى حياتك فى استنبول . . مشهد المساجد لحظة الغروب . . قرص الشمس يستدير وينكمش ويهبط من السماء إلى البحر فى طريقه إلى فراشه الليلى ، وقد لامس المآذن ، واضعا حوله هالة من الألوان الصوفية ، الخاشعة . . ثم . . تهبط الشمس أكثر ، حتى يصبح نصفها فوق سطح البحر والنصف الثانى غارقا فى المياه . . وقد تغير لونها من الأصفر إلى الأحمر ثم من الأحمر إلى البرتقالى ثم يختفى اللون البرتقالى تدريجيا تاركا الفرصة للون الأسود . . لون الظلام ليفرض وجوده ، وينشر أجنحته .

مشهد يسحبك بعيدا عن الدنيا . . ويلامس قلبك وضميرك برفق . . ويفرض عليك الخشوع والسكون وتتوارى خلفه كل تفاصيل الحياة الصاخبة . . والمبانى الحديثة ، وصراع البشر الذى لا ينتهى . . شمس . . غروب . . بحر . . مسجد . . أصفر . . أحمر . . أسود . . صلاة . . شموخ . . صوفية . . ثوان تفصل بين الليل والنهار . . لحظات يستدير فيها الكون . . يستيقظ بشر . . وينام بشر . . والله هو الحى القيوم الذى لا ينام .

مشهد لم تجد وزارة السياحة التركية أفضل ولا أجمل ولا أرق منه ، لتصوره ، ولتطبعه على صدر نشراتها الدعائية للعالم كله .

وأنا استمتعت بهذا المشهد ، وحرصت عليه فى كل يوم قضيته فى استنبول ، ورأيته من زوايا مختلفة مرة من مكان مرتفع . . ومرة على سطح الأرض . . ومرة فى لنش يخترق المياه فى اتجاه الشمس وكأننا يمكن أن نصل إليها ونلمسها بأيدينا . .

والمشهد ناعم جدا . . أجمل من الواقع . . الذى يمكن أن تلمس بعض تفاصيله مثل حجارة المساجد والمآذن والقباب . . فأغلب هذه المساجد تقع فى استنبول القديمة واستنبول القديمة أقل نظافة وأكثر ازدحاما من استنبول الجديدة . . والطريق إليها يمر بشوارع ضيقة وبيوت متلاصقة . . وكلما توغلت أكثر ضاقت الشوارع أكثر ، وأخذت فى الارتفاع أكثر . . كأنك تصعد جبلا . . ولأن الشوارع مغطاة بقطع وكتل من البازلت الأسود ، فعجلات السيارة كانت تهتز ، وعجلة القيادة كانت ترتعش ، مع أن السيارة جديدة ، وقوية وأعصابها حديد . . لكنها كتل البازلت مع الارتفاع التى تجعل السيارة تتحرك وكأنها تسير على أرض مكهربة أو أرض مسها زلزال .

ولو سرت على قدميك ، فستشعر أن الوجوه التى تقابلك ، وجوه مألوفة لديك . . وجوه تعرفها وتحفظها ، وتتعامل معها كل يوم . . فهى نفس الوجوه التى تراها فى القاهرة وفى سوريا وفى العراق ، وحتى أوفر عليك الوصف ، تصور نفسك فى حى السيدة زينب ، أو القلعة ، أو سيدنا الحسين رضى الله عنه . . البشر . . الثياب . . المبانى . . المقاهى . . الاسترخاء . . ربما كان الفرق فى ثياب النساء . . فالمرأة التركية تفضل اللون الأبيض ، أما المرأة المصرية فتفضل اللون الأسود . . أنا أتحدث عن نساء الأحياء الشعبية . . الفقيرة . . فقط .

على الأرصفة ، بجوار الجوامع القديمة ، يجلس ماسحو الأحذية ، وقد رصوا صناديقهم فى صف واحد . . والصناديق كبيرة ، مغطاة

بالنحـــاس اللامع، وبها جيوب توضـع فيهـا الفـرش . . والأصبـاغ والورنيش ، وصور خليعة .

أنت الذى تذهب إلى ماسح الأحذية ، لا هو الذى يلف حولك وأنت جالس على القهوة . . تصرف تركى طبعا . . ولو سلمته حذاءك فقد سلمت له أذنك أيضا . . وهو لا يتحدث غير اللغة التركية وأنت لا تعرف اللغة التركية . . لا يهم . . هو يتحدث وأنت لا تفهم . . فليس مطلوب منـك الـرد . . ثم انـه يستخـدم لغـة ماسحى الأحـذية عند الضرورة ، فيخبط الفـرشـة فى الصنـدوق لترفع قدمك اليمنى وتضع قدمـك اليسرى . . ويخبط ، بالفـرشـة ليعلن انتهاء مهمته . . ويخبط بالفرشة لتدفع النقود . . ويخبط بالفرشة . . اللى بعده .

بجـــانب ماسحى الأحـــذية ، ينتشر باعـــة الحلوى ، والسميط والفطائر ، وينتشر الشحاذون وأطفال يبيعون للسياح التذكارت الرخيصة

ويكفى وجـود هؤلاء الأطفـال فى مكان ما ، حتى تعرف أنك فى مكان أثرى هام . . ووجود عدد أكبر من الأطفال يعنى أن المنطقة الأثرية أهم . . لا دليل . . ولا ترجمان . . ولا مرشد سياحى . . ولو كان معك كتابا عن استنبول لقمت بجولة رخيصة . . ستعرف الأماكن الأثرية من الأطفال، وستعـرف المعلومـات عنهـا من الكتـاب . . وستـوفـر أجـرة الدليل . . عن نفسى أنا فعلت ذلك .

وأشهر مزار سياحى فى استنبول السوق المغطاة .

سوقٍ لا تجد لها مثيلا فى بلد آخر .

نحن الآن أمام السوق . . أمامنا بوابة من الحديد . . حتى تصل إلى البوابة لابد من النزول عدة درجات . . دخلنا من البوابة . . نزلنا عدة درجات أخرى يا الله . . مدينة كاملة تحت الأرض . . مئات المحلات وعشرات الشوارع ، وآلاف البشر . . بداية تعتقد أنها ستؤدى إلى مدخل بيت فإذا بها تؤدى إلى مدخل مدينة تقع على ٥٠٠ فدان . . فهل عدنا إلى زمن ألف ليلة وليلة ؟

المحلات تبيع أشياء كثيرة . . الذهب . . السجاد . . العطور . . الجواهر . . . العملات القديمة . . التحف . . الفخار . . الخزف . . النحاس . . والمصنوعات الجلدية .

نفس بضاعة خان الخليلى فى القاهرة ، والأسواق العربية القديمة فى سوريا ، والقدس ، والجزائر ، وسيدى بوسعيد فى تونس .

والأسواق القديمة كانت لأصحاب الحرف . . ثم أصبحت مزارات للسياح . . ولاتزال .

وفى هذه المدينة ـ السوق ، جمع السلطان سليم الأول الصناع والحرفيين الذين أخذهم من مصر وبدأ بهم عصرا من الازدهار الفنى والصناعى والحضارى . . لذلك ما يباع هنا يباع فى خان الخليلى عندنا . . الفروق الوحيدة فى الجودة ، وفى السعر . . فى خان الخليلى جودة أعلى وسعر أرخص . . علبة الصدف التى تشتريها من خان الخليلى بخمسة جنيهات تشتريها هنا بخمسين . . والفازة النحاس التى تشتريها

هناك بثلاثة جنيهات تشتريها هنا بثلاثين . . والسجادة التى تشتريها فى مصر بألف جنيه يزيد ثمنها هنا على عشرة آلاف جنيه .

ولابـد أننـا تعلمنا الفصال من الأتراك . . هم ولعون بذلك . . يبدأون بعشرة جنيهات وينتهون الى نصف جنيه . . إلى هذا الحد . . وأنـا أعتبر الفصال مناورة بين اثنين يجرب كل منهما شطارته فى الحرب الباردة ، لذلك فأنا أهرب من الشراء إلا عند الضرورة ، أو إذا أحسست أن ما اشتريته أرخص من مصر ، أوكان معى صديق من أهل المدينة .

وقد أعجبنى جاكتة من الجلد . . جلد الشمؤاه . . وسألت البائع :

- بكم ؟

ــ ١٥٠ دولارا .

- ولأنها لم تعجبنى إلى هذا الحد ، فاننى خلعتها فى صمت ، وقبل أن أعيدها إلى مكانها وجدت شابا يقول :

- سندفع ٦٠ دولارا .

ورفض البائع . . إلا بسبعين دولارا .

ولأننى تسمـرت فى مكـانى من الـدهشـة ، فقد دفعت المبلغ ، وأخذت الجاكتة ، وعندما خرجت من المحل وجدت الشاب يتبعني ، ويقدم لى نفسه . . إنه مهندس مبان . . لا علاقة له بالمحل . . وإنه وجـدنى فى ورطـة ، فتدخل لانقاذى . . وقد صدقته . . وتعارفنا . . وشربنا قهوة معا . . وأوصلنى بسيارته إلى الفندق .

أى إنه فعل كل ما يبرىء ساحته من تهمة السمسرة والتدليس . . فهل أراد أن ينقذنى فعلا ، أم أنه وجدها فرصة ليمارس هواية الفصال التى يشتهر بها الأتراك ؟ . . الله أعلم .

وستذهل لو عرفت أن الفصال يمتد أيضا للمشغولات الذهبية . . ولسعر الدولار فى السوق السوداء . . ولفاتورة الفندق حتى ولو كان من طراز خمسة نجوم .

فعندما طلبت فاتورة حسابى من الفندق ، داعبت الموظف قائلا :

ـ هل هذا حسابى ؟

ـ نعم .

ـ لكنه ثقيل .

ـ أفندم ؟

ـ ده آخر كلام ؟

ـ نعم .

ـ وكلمة البيع والشراء .

فوجئت بالرجل يقول لى : لحظة واحدة . . واختفى . . ثم جاء ، ثم وجدت الفاتورة ناقصة ١٠٪ تقريبا .

وتحولت النكتة إلى حقيقة .

ـ وقد حزنت ولم أفرح ، فأنا أعتقد أن الفصال خدعة ، والتنزيل يعنى تنزيل درجة استغفالك فقط . . لذلك فأنا لا أشترى . . وأفضل الفرجة . . على الأسواق وعلى الأبرياء الذين يخرجون سعداء لأنهم ضحكوا على صاحب المحل ودفعوا ضعف الثمن .

حتى لو كان ذلك المهندس الشاب خدعنى ، فقد استمتعت بصحبته فى السوق . . فهو يعرف الكثير عن بلده . . وهو يجيد التحدث بلغة انجليزية سلسلة . . ثم . . إن السوق مغطاة لا تشعر وأنت فى داخلها لا بالبرد ولا الحر ، بالشمس ولا بالمطر . . إذن فكل شىء يمتعنى . . المكان . . والجو . . والبشر . . والحوار :

ـ هل تعرف أن أجدادك المصريين هم الذين بنوا هذا المكان ؟
ـ لا . . .
ـ هذه حقيقة .
ـ الأتراك لا يعترفون بالحقيقة عادة .
ـ الجهلاء فقط . . لقد جاء المصريون ليعلمونا فنون البناء . . كنا فى ذلك الوقت . . لا نعرف كيف تُبنى البيوت ولا المساجد ولا الأسواق . . أما أنتم فبارعون . .

إنك تشعر هنا أنك فى مدينة مكيفة الهواء .

ـ إننا هنا فى أقدم مدينة مكيفة تكييفا مركزيا يعتمد على حركة تيارات الهواء .

ـ عرفت أن فى هذه المدينة ـ السوق ٧٠٠ نوع من البازارات الشرقية .
ـ هذا صحيح . . . وتجمعها فى مكان واحد يثبت أن الشرق سبق الغرب فى فكرة الأسواق المجمعة أو مراكز التسوق المعروفة بالشوبنج سنتر . . حيث كل البضائع فى مكان واحد .

ولو كانت السوق القديمة فرجة ، فالأسواق الحديثة فرصة للشراء . .

الـذوق متـطور والألـوان أيضا . . والبائعون يتسمون باللين والأسعار أيضا . . وخاصة إذا ما قورنت الأسعار بجحيم الأسعار فى أوروبا .

ومع عدم الفصال فالأسعار أقل من أوروبا بحوالى الربع . . بما فى ذلك أسعار الفنادق والطعام والثياب والرحلات السياحية .

وإذا كنا قد اقتربنا من أسواق استنبول الشرقية والغربية ، فذلك لكى أكمل لك باقى صور التناقض فيها . . حيث لابد أنك قد تأكدت الآن أنـك فى خلاط كبـير ، يمتزج فيه القـديم والجـديد . . الشرق والغرب . . حلم المستقبل وعطر الماضى .

كل تناقضات الدنيا فى استنبول . .

كل العصور فيها . . والحضارات والقيم أيضا .

ولو أردت أن تلخص العالم فى مدينة واحدة ، فهذه المدينة لابد أن تكون استنبول .

إستنبول . . إستنبول . .

من اشترى مصر .. بقرش ؟

أغرب تفسير لنكبة مصر بالأتراك ، سمعته من الصوفيين .

يقولون أن أحد أولياء الله الصالحين ، غضب من مصر ، فدعا عليها ، أن يحكمها حاكم لا شأن له .. من سفهاء القوم .. ممن لاأصل ولا فصل له .

ويقولون أن المولى وضع سره فى مجذوب من مجاذيب استنبول ، فجعله يمشى فى الشارع ، ويردد :

«مصر برغيف من يدفع فيه قرشاً» !

«رغيف بقرش من يأكله يأكل مصر» .

ويقولون أن السلطان سليم الأول اشترى الرغيف بقرش وأكله .. كان مجرد جندى بسيط ، فلما أكل الرغيف أصبح حاكما على مصر وعلى غيرها .

سمعت هذه القصة فى القاهرة .

وفى استنبول سألت عنها . . هل يعرفونها ؟ . . هل يملكون دليلا عليها ؟ . . هل هى خيال فى خيال ؟ وفوجئت بأنهم يقولون أن الرواية شائعة عندهم . . تتوارثها الأجيال . . وفوجئت بأنهم يؤكدون صحتها . . لكن يقولون أن الذى اشترى الرغيف وأكله وكُتب له حكم مصر ليس السلطان سليم الأول ، وإنما الجندى ، الألبانى ، الفقير ، محمد على الكبير . . كان إنسانا نكرة . . جائعا . . حافيا . . لا مستقبل له ، عندما قابل المجذوب ، وتحمس أن يشترى مصر برغيف . . وأن يدفع فى الرغيف قرشا . . وقد انضم محمد على إلى جيش السلطان العثمانى بعد اسبوع . . وبعد أن أصبح قائد فصيلة نُقل إلى مصر ليتولى قيادة الحامية التركية . . وبعد سنوات عزل المشايخ والوالى التركى وفرضوا محمد على حاكما على مصر .

الذى أكد لى الرواية وصححها لى ، رجل له مكانته العلمية ، متخصص فى خبايا العصر التركى ، كان مديرا لمتحف «طوب قبل سراية» ثم هو رجل صوفى ، يؤمن بأن هناك دولا باطنية يحكمها أولياء الله الصالحون .

ولأننى دهشت . . فقد قال الرجل :

ـ إنك لن تصدق مثل هذه الرواية مادمت لست صوفيا . . عقلك لن يستوعبها ما لم يمتلىء قلبك بذكر الله . . إنه مشوار طويل لا يقدر عليه إلا من اختارهم الله واجتازوا أصعب الاختبارات .

ولأننى ذهلت . . فقد أضاف الرجل :

ـ أنصحك أن تترك هذه الرواية ، وتذهب للفرجة على المتحف . . هذا أفضل وأسهل لك ومن الممكن أن يستوعب عقلك ما ترى .

وعملت بالنصيحة !

وذهبت إلى متحف «طوب قبل سراية» . . الشهير فى استنبول .

إن المتحف يُلخص تاريخ السلاطين العثمانيين الذين حكموا برغيف ، أو بالقهر . . بسيوفهم أو بضعفنا . . ويروى المتحف تفاصيل حياتهم اليومية . . طعامهم . . ثيابهم . . ولعب أطفالهم .

والمتحف كان فى الأصل سراية يعيش فيها السلاطين ، ويحكمون منها امبراطوريتهم المترامية الأطراف . . من الجزائر إلى العراق . . ومن مصر إلى بولندا . . ومن أرمينيا إلى اليونان .

سور حديد مدبب . . بوابة كبيرة تسمح بمرور ثلاث سيارات معا إذا ما فُتحت على مصراعيها . . ممر طويل . . طوله نصف كيلو متر . . عريض . عرضه ١٠٠ متر . . والممر ينتهى بحديقة كبيرة جدا . . الحديقة بها أشجار فاكهة ، ونخيل ، ونباتات نادرة ، وأزهار من مختلف بلاد الإمبراطورية القديمة . . حول الحديقة مبانٍ عريضة . . عتيقة مبنية بكتل الحجر الجيرى . . مبنى رئيسى هو مبنى العرش . . مبنى أصغر لسكن الموظفين والحاشية . . ومبنى أصغر للخدم . . ومبنى بعيد للحريم . . الحرملك .

قبـل أن أدخل مبنى العرش ، لاحظت وجود مجموعة من الدوائر المرسومة على الأرض بصورة غير منظمة ، بالبوية الحمراء . . هنا اغتيل السلطان فلان الفلانى . . هنا اغتيل السلطان علان الترتانى . . وهكذا نوع من تسجيل التاريخ فى أماكن الاغتيال الطبيعية . . إنها عملية أقرب لما يفعله رجال البوليس الآن فى جرائم القتل . . والدوائر كثيرة . . فى أمـاكن متفـرقـة . . المـدخـل . . الحديقة . . قاعة العرش . . غرف النــوم . . وهـذا طبيعى ، فالخنجـر كان أسهـل وسيلة للحصـول على العــرش . . ومؤامــرات الغــدر والخيانــة كانت جزءا من حياة تلك القصور . . والقتل كان من أجل السلطة ، ومن أجل النساء . . والقتلة كانوا أمراء وكانوا جوارى .

ولو كانت جثث القتـلى فى مكانها لتحول هذا المتحف إلى متحف للجريمة السياسية . . لتحول إلى متحف شمع . . ولو كان الأمر بيدى ما سميته «طوب قبل سراية» وإنما «ريا وسكينة سراية» .

على اليمين مدخل صغير . .

وفى الـداخـل مصـلى ، وفى المصـلى سجاجيد من الحرير ، وعلى السجاجيد الحرير وسائد من ريش النعام . . وفى نهاية المصلى حوض كبـير ، مستـديـر ، عليه عدد من صنابير المياه . . والمصـلى للسلطان ولحـاشيتـه . . وأغلب السـلاطين كانوا يعتبرونه أفضل مكان للتداول والتشـاور ، وتـدبير الخطط المضادة لخطط الخصوم . . وقد كان أولئك

السلاطين يأمرون بفتح صنابير المياه عن اخرها ، حتى يشوشر صوت المياه ، على كل من يحاول التصنت عليهم وهم يتآمرون .

منتهى البساطة . . ومنتهى الذكاء .

ولعلها طريقة سهلة لمكافحة التجسس الذى كان يعتمد وقتها على التصنت بالأذن لا بالمكرفونات الدقيقة . . ولعل الجواسيس كانوا أيامها يصابون بالطرش من إصرارهم على التصنت ، رغم صنابير المياه المفتوحة عن آخرها . . فهل كان يقبض عليهم بمجرد أن يضعوا قطعة من القطن فى أذانهم ؟

من باب جانبى من المصلى يمكن دخول المبنى الرئيسى للقصر ، حيث قاعة العرش . . لكن من الأفضل أن نخرج كما دخلنا ، وندخل قاعة العرش من بابها الرئيسى . لنستمتع برؤية النقوش والزخارف ، ونغوص فى السجاد الأحمر ، ونتأمل جمال السلالم الرخامية التى تضوى مثل المرمر .

نحن الآن أمام العرش . .
فى الحقيقة نحن الآن أمام العروش . .

فكل سلطان من السلاطين كان له عرش مختلف . . النماذج التى أمامنا تقول ذلك . . بعضها مصنوع من الذهب . . وبعضها مبطن بالحرير . . والحرير إما مرصع بالياقوت أو مشغول بحبات اللؤلؤ . . والفرق بين عرش وآخر ليس فى نوع الأحجار الكريمة التى تزينه فقط ، وإنما فى التصميم أيضا . فعرش السلطان سليم الثالث كانت قاعدته

عريضة ، وأرجله قصيرة ، وظهره غير مرتفع ، وكان ذلك يناسبه ، فهو قصير ، وله «كرش» وساقاه مثل ساقى الأطفال . . وقد قُتل أمام عرشه مباشرة ، ويقال أنه كان مصابا بتخمة فلم يستطع أن يفتح فمه ، ويقال أن القاتل تقدم إليه بهدوء عندما انتبه السلطان تعثر فى سجادة أمامه ، وتكـور على الأرض ولم يستطع أن يقوم بسبب الكرش ، ولم يجد أمامه سوى أن يتدحرج على الأرض لكن ذلك لم ينقذه .

والسلطان مراد الـرابـع كان عرشـه مثـل الكنبـة الاستانبولى . . عريض . . ليس له ظهر . . تحته مقعد صغير ليمد عليه قدميه . . وكان لابد من هذا التفصيل لسلطان كان وزنه ١٢٠ كيلوجرام ، وطوله ١٧٥ سنتيمتر . . وتقدر قيمة هذا العرش المادية ، لا الأثرية ، بحوالى ١٠ ملايين دولار على الأقل .

وكما كان لكل سلطان عرشه الخاص ، كانت له أيضا ثيابه الخاصة التى كان يفصلهـا على المـوضـة . . صحيح أنهم جميعا كانوا يلبسون الجلباب ، لكن صحيح أيضا أنهم كانوا يختلفون فى التفصيل . . كان بعـضهم يفضله ماكس ، والبعض الآخـر يفضله مينى . . وفى نوع القماش . . بعضهم كان يفضل القطن وبعضهم يفضل الحرير المطرز بالذهب ، أو الموشى بالقصب ، وفى الألوان . . كان منهم من يميل إلى الأحمر . . وكان منهم من يميل إلى البرتقالى . . وكان منهم من يفضل الأسود . . وفى الموديل بعضهم كان يخيط جلبابه فضفاضا . . وبعضهم كان يفضل أن يلتصق بجسمه . . وهناك من كان يُضيق الصدر ويُوسع الذيل . . مثل فساتين النساء أحيانا .

أحد السلاطين حاول أن يكون مميزا عمَّن جاء قبله ، وعمَّن سيأتى بعـده ، فاستخـدم نوعـا واحـدا ولـونـا واحدا ، من القماش ، صنع منه ثيابه وثياب زوجته ، وأولاده ، وأغطية الفراش والمخدرات ولك أن تتخيل المشهـد . . لك أن تتخيل هذا النوع من الجنون . . والقماش الـذى جن هذا السلطان اسمه «كماها» وقد نسجه الأتراك بأيديهم فى القرن السادس عشر، وهناك من يقول أن السلطان أراد تشجيع الصناعة الوطنية ففعل ما فعل . . ربما .

فى القرن الثامن عشر استخدم السلاطين الفرو والجلد . . وضعوه كإكسسـوار على الـرقبة والذيل فى البداية . . ثم استخدموه روباً فى حجـرة النـوم . . ولأنهم أحسـوا بالنعـومة فقد حرموا الفراء على عامة الشعب ، مع أن الفقراء من باب الفقر صنعوا منه ثيابهم . . قبل قرون .

بعـد الفـراء جاء الـدور على الـذهب . . وكانت البداية على يد السلطان مراد الـرابـع ، الـذى نسـج ثيابـه الامبراطورية من الذهب الخالص . . أما ثيابه الداخلية فكانت بعض خيوط نسيجها من الذهب أيضا .

وسألت المرافق :

ـ كيف كان يتحرك السلطان بملابس داخلية خشنة ، ولو كانت من الذهب ؟

ـ يبدو أنه كان يهرب الذهب فى ملابسه الداخلية إلى الخارج !

حول السؤال إلى نكتة . . ولم أعرف الإجابة . . ولأننى اغتظت فقد سألته :

ـ هل كانت استنبول مدينة حرة مثل بورسعيد ؟

ولم يفهم . . فارتحت .

والحقيقة أن السلطان مراد الرابع كان مولعا بالثياب . . ولو كان فى أيامه مجلات موضة لأدمن قراءتها . . ولو كان فى أيامه إستفتاءات لكان واحدا من أشيك عشرة رجال فى العالم . . العالم على أيامه . . ولا أعرف لماذا تخيلته بطل قصة الكاتب الهولندى الشهير هانز كريستيان اندرسون «السلطان العارى» . . إن بطل القصة كان سلطانا لا يهتم إلا بالثياب ، وقد جاء من يخدعه ويوهمه بصناعة ثوب له من خيوط القمر . . ونجحوا فى الحصول على الذهب ، والاقامة فى القصر ثم أقنعوه بخلع ملابسه ليصبح عاريا فى ضوء القمر . . ثم أقنعوه بأنه يرتدى الثوب المصنوع من خيوط القمر وطلب السلطان حاشيته ليسألهم رأيهم فى الثوب ، ولم يجرؤ أحد منهم أن يقول أن السلطان عار ، وخرج السلطان فى موكبه ليتفرج الشعب على الثوب ، ولم يفتح أحد فمه إلا طفل صغير كان والده يحمله على كتفه صرخ : السلطان عارٍ . .

على أن السلطان مراد الرابع كان أشرس السلاطين الأتراك . كان يقتل من يعارضه ، ويسجن من يسخر منه ، وينفى من يقف فى وجه أطماعه . . لكن هذه الشراسة كانت تخفى عجزا فى مواجهة زوجاته وأمه . . فهل الديكتاتورية تخفى عجزا داخليا ؟ . . هل هى محاولة لستر عورة ما ؟ .

بعض قضايا التعذيب فى سجون مصر تؤكد ذلك .

ثم . . هل المبالغة فى المظهر محاولة أخرى لتغطية شىء ما فى الأعمال ؟ . . ليس دائما . . وإن كانت حالة السلطان مراد تؤكد ذلك .

أحب الذهب والثياب ورائحة الدم . . من الذهب صنع ثيابه ودروع الحرب ، وسيوفه ، وخناجره وأوانى طعامه ، وغطاء أسنانه . . ومن الثياب أحس انه تفوق على كل نساء الأرض . . ومن الدم كتب تاريخه فى الإرهاب ، والبطش ، والقتل .

ورغم عشقه للذهب ، فقد اتهمه السلاطين الذين جاءوا بعده بالبلاهة ، لأن الذهب ليس أثمن ما فى الكنوز . . هناك الأحجار الكريمة . . الماس ، والزمرد ، والياقوت .

هؤلاء اعتبروا أنفسهم أشطر منه لأنهم تعاملوا مع ما هو أثمن من الذهب . . وفى السراية ـ المتحف توجد زمردة وزنها ٣ كيلوجرامات و٢٦٠ جراما اشتراها أحدهم . . وهى أعظم وأندر زمردة فى العالم . . وهناك ترسانة من المسدسات.والبنادق لهم ،مرصعة باللؤلؤ والياقوت .

وأطباق كانوا يأكلون فيها مصنوعة من العقيق والزفير . . ومباسم للنرجيلة مصنوعة من الكهرمان النقى . . وسرير لولى العهد ، وهو رضيع مصنوع من الذهب الخالص ، ومُرصع بالأحجار الكريمة وكانوا يسمونه «كاروكا» . . غير«كاريوكا»،ومعالق من العاج تنتهى بقطع صغيرة من الألماظ .

ثروة أسطورية من التحف والمجوهرات .

كنز من الترف ، والبذخ والحياة بلا حساب ، وبلا ضمير . . حياة بلا حساب . . أو على حساب ملايين من الفقراء الذين حكموهم ، وتحكموا فيهم ، وحكموا عليهم بالجوع والتخلف .

شيء مثير للغثيان أن يتعامل السلاطين على أنهم من طينة غير طينة البشر . . فكان أن عاشوا فى الجنة وتركوا لغيرهم الجحيم . . وكان أن ماتوا من التخمة ومات غيرهم من الجوع . . وكان إن زهقوا من المتعة فزهقت منهم الحضارة .

إن الحضارة تبدأ بالسيف وتنتهى بالترف . . القائد يصبح حاكما . . والحاكم يغرق فى الملذات . . والملذات هى السوس الذى ينخر فى عظام الحضارة . . ويظهر سيف جديد فى يد حاكم جديد ، يغرق فى ملذات أخرى . . وتدور الدائرة . . الرومان . . الاغريق . . الفرس . . الأتراك . . الأمريكان . . مسلسل لاينتهى . . ولا يختلف إلا فى الثياب والأسلحة ونوع الملذات .

المؤرخ الراحل أرنولد توينبى صاحب هذه النظرية .
والمخرج السينمائى المعاصر فللينى ترجمها إلى صورة حية فى فيلمه «سيتركون» .

فى سيتركون نحن أمام مستوطنة من اللحم الأبيض . . ومستودعات من الخمر . . وكتائب من الخدم والعبيد . . وبخور . . وخرافات . . وسيوف باردة ، وسيوف مكسورة . . وأباطرة استحلبوا اللذة حتى جفت ،ولأنهم يطلبون المزيد فإنهم يستنفذون طاقتهم فى الابتكار وهذه هى النهاية . . نهاية الحضارة والامبراطورية الرومانية .

وفى مشهـد له مغـزى ، يذهب المقاتل الشاب إلى الساحرات ، يطلب العـون . . لقـد أصبـح عاجزا جنسيا وغير قادر على أن يكون موجودا فى امبراطورية اللذة . . ويقول للساحرات :

لقد فقدت خنجرى .
أى فقد سلاحه .

وفى فيلم أمـريكى متمـرد اسمـه «تسعة ونصف» نجد شابا وفتاة يملكـان كل شىء . . المال . . المنصب . . البيت الناعم . . الطعام الشهى . . كل شىء . . لكنهـما رغم ذلك لا يشعران بالمتعة . . إنهما يريدان ما هو مختلف . . ما لم يُجرب من قبل . . ولأن ما يبحثان عنه لا وجـود له ، فهـما يبتكران . . أو يحاولان . . فنجدهما يتبادلان الحب فى «خـرابـة» تمرح فيهـا الفئران ، والحشرات ، وتمتلىء بمياه المجارى . . والفيلم يقول أن مصير روما القديمة ينتظر نيويورك الآن .

والـــذى يعــرف كيف عاش سلاطـين الأتـراك يعـرف سر انهيار حضارتهم . . يعرف لماذا تحولت امبراطوريتهم إلى رجل مريض ؟

والذى يقارن بين ثياب السلاطين وعروشهم وزخرفة أسلحتهم وبين الهدايا التى كانوا يتلقونها من العالم الخارجى ، سيعرف الفرق بين التقدم والتقهقر . . بين العلـم والخرافة . . بين الأخذ والعطاء . .

فى قاعة أخرى من المتحف توجد هذه الهدايا . . ساعة حائط من ملكة بريطانيا تعمل بدون زمبلك وبحركة الهواء . . خريطة مجسمة للعالم

من ملك أسبانيا .. نموذج للقصر الامبراطورى فى بكين غاية فى الدقة والابداع ، تنبعث منه قطع موسيقية مختلفة ، بالزمبلك . .

لقد كان الزمبلك أعجوبة علمية . . لكنه كان بالنسبة للسلاطين لعبة . . كالتى يلعب بها أطفالنا الآن ومقابل كل زمبلك كان السلاطين يردون الهدية بصناديق من الذهب ، تمتلىء بالأحجار الكريمة . . إنهم مثل الهنود الحمر الذين اشتروا عقود الخرز بالذهب والفضة .

وفى جناح الهدايا ، قاعة مخصصة للساعات . . قاعة مساحتها ٦٠٠٠ متر مربع . . جدرانها مغطاة بساعات من مختلف الأشكال والبلاد . . بعضها لايزال يعمل حتى الآن . . لكن أغلبها توقفت عند الساعة التاسعة وخمس دقائق . . اللحظة التى مات فيها أتاتورك يوم ١٠ نوفمبر ١٩٣٨ . . لقد أوقف أنصار أتاتورك هذه الساعات لحظة أن ترك الحياة . . ولاتزال . . والمعنى أن الزمن توقف عندما توقف قلب أتاتورك . . أو هكذا يجب أن يكون .

بجانب قاعة الساعات ، يقع مبنى مغلق ، ممنوع دخوله إلا بإذن خاص . .

مبنى جناح «الأمانات المقدسة» .

آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن عبدالله ، وآثار الصحابة والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

لذلك فالدخول بتصريح خاص ، لم أجد صعوبة فى الحصول عليه ، ولا أعرف السر . . ربما لأننى صحفى . . وربما تكفيرا عن

الذنب الذى ارتكبوه فى حقى ، فى أنقرة ، بعد صورة الشمس لحظة الغروب .

دخلت جناح الأمانات المقدسة .

على الباب تقرأ :

«ادخلوها بسلام آمنين» .

وتقرأ :

«شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» .

فى الفاترينات سيوف الخلفاء الراشدين .. سيف عمر .. سيف عثمان .. وسيف أبى بكر .

وسيف عمر بن الخطاب عريض .. وسيف عثمان بن عفان طويل .. وسيف أبى بكر الصديق مصنوع من الصلب الرخيص ، لا يحمل أى نقوش ولا زخرفة .. لأن السيف كان للقتال لا للتشريفة .. والسيوف معلقة فوق نسخ من المصاحف المكتوبة بخط اليد أيامهم .

وأشهرها مصحف عثمان الذى كان يقرأ فيه عندما قُتل .. ولايزال المصحف مفتوحا عند الآية التى كانت أمامه لحظة أن لفظ أنفاسه الأخيرة .

وأغلب الظن أن النسخة المعروضة ليست النسخة التى كان يقرأ فيها .. وأغلب الظن أن النسخة التى كان يقرأ فيها هى الموجودة فى حجرة المخلفات الشريفة داخل مسجد سيدنا الحسين بالقاهرة .. فعلى هذه النسخة قطرات جفت من دماء سيدنا عثمان .. وهى مكتوبة على

رق الغزال ، بخط مميز ، يخلو من النقط ويصعب علينا قراءتها . . وهى سميكة جدا ، ومجلدة بالخشب الذى يقاوم الزمن .

وفى حجرة المخلفات الشريفة بسيدنا الحسين تُوجد قطعة من عصا النبى ، ويوجد سيفه وتوجد المكحلة .

والحجرة الشريفة تدخلها من باب أمام مقام الحسين رضى الله عنه أما باب المقام فبجانب منبر المسجد .

فى داخل مبنى الأمانات المقدسة فى استنبول توجد حجرة كبيرة تؤدى إلى حجرة صغيرة ، تؤدى إلى حجرة أصغر . .

والحجرة الأصغر بها فترينة مصنوعة من زجاج يصعب تحطيمه . . والزجاج موصل بأسلاك رفيعة يصعب رؤيتها . . والأسلاك موصلة بجرس إنذار يصعب اكتشافه . . وجرس الانذار أشد من جرس الحريق ، يحطم كل السكون لو تجاوز أحد الزوار حدوده .

كل هذا الحرص من أجل ما فى داخل الفترينة .

وعندهم حق .

فوراء الزجاج «ختم» النبى صلى الله عليه وسلم ، وشعرة من رأسه ، ونموذج لقدمه ، وخطاب مرسل منه إلى المقوقس عظيم القبط . . وضرس من أسنانه الشريفة .

والختم مصنوع من حجر فى لون الكهرمان لا يزيد طوله على سنتيمتر ، ولا يزيد عرضه على نصف السنتيمتر . . على شكل

بيضاوى ، محفور عليه ثلاث كلمات ، على ثلاث زوايا من الشكل البيضاوى : محمد . . رسول . . الله .

وهناك نموذج آخر من ختم النبى عليه الصلاة والسلام ، عبارة عن دائرة مفتوحة على مربع . . المربع قمة . . والدائرة قاعدة . . والمربع أبيض والدائرة محفور فيها ما يدل على الشهادة : «الله وحده لا شريك له . محمد رسول الله» .

وشعر النبى عليه الصلاة والسلام ـ الذى يحتفظون بشعرة منه ـ يبدو ـ والله أعلم أنه كان طويلا . . ويبدو . . ـ والله أعلم ـ أنه كان فى لون بين الأسود ، والبنى . . ويبدو ـ والله أعلم ـ أنه كان ناعما .

أما الضرس ، فواضح أنه يعبر عن أسنان قوية سليمة .

والقدم الذى طبعوا أثره على قطعة حجر يبدو أكبر من المعتاد .

وبجانب هذه الآثار الشخصية لنبى الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوجد أصل الخطاب الذى أرسله إلى المقوقس ، عظيم القبط ، يدعوه فيه إلى الاسلام . .

«بسم الله الرحمن الرحيم .

«من محمد عبدالله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فانى أدعوك دعاء الله ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك ثم القبط ياأهل الكتاب . . تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون» .

وفى نهاية الخطاب ختم النبى صلى الله عليه وسلم .

فى حجرة جانبية أخرى ، توجد نماذج من السيوف التى قاتل بها النبى صلى الله عليه وسلم والثياب التى كان يرتديها . وحافظة من الذهب كان يضع فيها وثائقه الرسمية .

وعلى سقف الحجرة عبارة تقول :

«خير من المال ما أنفق فى سبيل الله» .

وعلى الجدران نموذج من كسوة الكعبة يوم دخلها الرسول صلى الله عليه وسلم وفتح مكة .

وكل هذه الآثار المقدسة ، كانت موجودة فى مصر قبل الفتح العثمانى . قبل أن يدعو ولى الله عليها ويبيعها بقرش .

اللهم لا تعرض بلادنا لغضب أهلك وأوليائك الصالحين ، حتى لا تباع برغيف .. أو بقرش، أو حتى بدولار أمريكى .. أو روبيل سوفييتى .. أو ين يابانى .. أو شيكل إسرائيلى .

مع حريم السلطان !

الحـــرملك . . . المكـــان المخصص للحـــريم . . والحـريم من الحرام . . والحرام ماحُرم علينا . . دماء الآخرين وأموالهم وأعراضهم .

والمعانى كما نرى جميلة . . شريفة . . محترمة . . ولكن استخدامنا للكلمات ليس كذلك ،أى ان قاموس اللغة ليس دائما مثل قاموس الواقع .

فى قاموس الواقع . . الحرملك يعنى سجن النساء . . سجن قطاع خاص . . والحريم يعنى نساء بلا رأى ، وبلا قيمة ، لا إدارة لهن ، ولا دور . . مجرد مراتب أو مخدات . . وفى أفضل الأحوال أوانٍ لانجاب الأطفال .

ولوقلت لأمرأة الآن : يا . . « حرمة » لأحست بالأهانة ، مع أن الحرمة هى المرأة المحرمة على رجال الأرض الا على زوجها . . فهى تعتقد أن حرمة يعنى جارية ، وجارية يعنى بضاعة تباع ، وتشترى فى سوق

النخاسة . . وأغلب الظن انك ستعاقب على هذه الإهانة . . حتى لو كانت المرأة التى وجهت اليه الكلمة استاذة فى اللغة العربية وحاصلة على الدكتوراه فى حفظ «القاموس المحيط» وأغلب الظن أنك ستجد شيئا مدببا قد رشق فى رأسك . . كعب حذائها .

وقد اختفت الكلمة لأن معناها تغير واستخدامنا لها أيضا .

اصبحت كلمة « حريم » كلمة سيئة السمعة لاينطقها رجل مهذب . . « جنتلمان » . . ولاتسمعها امرأة عصرية . . « ليدى » .

الاتراك هم الذين شوهوا الكلمة . . وأساءوا استخدامها . . وقلبوا معناها .

والدليل على ذلك مبنى الحريم ، أو الحرملك الذى لايزال قائما فى متحف طوب قبل سراية « فى استنبول » .

والمبنى الآن متحف . . لكنه فى عهد السلاطين كان مستعمرة حريم ، يملكها رجل واحد ، ولايقترب منها ولايلمسها ولا يدخلها رجل آخر . . أو باقى الرجال .

وعندما سقط اخر السلاطين ، السلطان عبد الحميد ، خرج من الحرملك ٣٧٠ امرأة ، ١٢٧ خصيا ، كانوا فى حالة يرثى لها . . بعضهم كان مصابا بأمراض عضوية . . شلل . . سل . . تضخم فى الكبد . . والبعض الآخر كان مصابا بامراض نفسية . . هيسترية . . ذهول . توهان . . وكان هناك من يجمع بين النوعين .

رقد فوجئوا بالشمس ، فاخفوا عيونهم بأيديهم . . فقد عاشوا طويلا فى الظلام ، وخلف الجدران السميكة التى لاتعترف بالضوء .

وفوجئوا برجال الصحافة الأوربية يحاصرونهم بالأسئلة . . وخافوا وعجزوا عن الرد . . فليس من حق الجوارى الكلام مع رجال غرباء ولا الخصى ايضا !! حتى لو كانِ عصر السلاطين قد انتهى !

وفى التقرير الذى كتبة الصحفى الالمانى هربرت نيومان الى صحيفة « زود تسيتونج » ما يؤكد انه ذهل . . وانه لم يستطع تحمل هذه المأساة ، مع انه مراسل حربى ، وسبق له أن كتب عن فظائع الحرب بأعصاب ثابتة ، وعيون مفتوحة ، وقلب بارد . . ميت !

وفى التقرير ما يؤكد انه صُدم . . فقد تصور ان مهمته الصحفية هذه المرة ممتعة . . سيرى فيها حريم السلطان . . سيرى فيها الجوارى الحسان اللائى كان السلطان يجمعهن ـ كالتحف النادرة ـ من الشرق ومن الغرب . . لكنه فوجىء بأن مايراه لا يمكن ان يحدث الا فى مصحة للأمراض النفسية والعصبية .

ان القاعدة فى حرملك سلاطين الاتراك كانت : الداخل مفقود والخارج مولود !

ولم يكن احد يخرج الا على القبر .

وكأن القاعدة الحقيقية كانت : الداخل مفقود والخارج محمول . . محمول على الاكتاف الى القبر . . الى التراب . . الى مثواه الأخير . .

من قبر جاءوا . . وإلى قبر ذهبوا . . فكل من كان فى الحرملك كان مدفونا بالحياة .

ولكل امرأة دخلت الحرملك قصة ، ولكل جارية أو خصى أيضا . . وبمرور الايام تحولت القصة الى أسطورة . . وبمزيد من الخيال تحولت الأسطورة الى مأساة . . مأساة لايزال الاتراك يروونها على المقاهى وهم يسحبون انفاس النرجيلة . . وفى ليالى الشتاء فى البيوت وهم يشوون ابو فروه .

والحكومة التركية عندها حساسية من هذه الروايات .

فالعالم يطاردها دائما بالكلام عن الحريم . . ويستخدم ما فات للتشهير بما حدث . . لو أخطأت الحكومة التركية فى حق حكومة أخرى بدأ التشهير بالخطأ السياسى وانتهى بالخطأ التاريخى فى حق النساء .

والحساسية تحولت الى عقدة مزمنة ، عكست نفسها فى صورة ممنوعات . . ممنوع دخول الحرملك الا بأذن خاص . . ممنوع التصوير فى الداخل . . ممنوع التجول والفرجة دون مرافق ، يشرح ، يفسر ، ويبرر . .

وربما كان عندهم حق . .

وربما يريدون أن يتذكر العالم ما كان يفعله سلاطينهم . . فالخطأ ، خطأ ولو صححته . . والجريمة جريمة ولو عوقب من ارتكبها .

لقد كان الحرملك فى الواقع سجنا . . كان سجنا يعذب فيه

السلطان جواريه وحـريمه ، مرة بالاستمتاع بهن . . وعشرات المرات يتركهن فريسة للوحدة ، والقلق ، والملل ، وبرودة المشاعر والجدران .

وهـذه الحقيقـة تشعر بمرارتها بمجرد أن ترى مبنى الحرملك من الخـارج . . مبنى كبير ، مستطيل مرتفع ، مكشوف ، يصعب الهرب منـه . . كأنـه سجن ابى زعبـل . . جدرانـه من الحجـر الأبيض السميك . . نوافذه ضيقة . . مرتفعة عن الأرض . . ومغطاة بقضبان من الحديد .

واعترف اننى صدمت . . وانت ايضا بالطبع .

فقـد صورت لى خيالات الرجل الشرقى الحرملك وكأنه جنة على الأرض . . بحـيرة . . أشجـار . . أزهـار . . طيور تغـرد . . نسـاء ترقص . . موسيقى يهتـز لها القلب والحجـر . . جنـة يدخلهـا آدم ، ولايفكر فى الخروج منها مرة أخرى . . جنة مقصورتها قطعة من الف ليلة وليلة ، ذلك الكتاب الذى حكمنا ولايزال . . جنة نُقلت صورتها من الأساطير الشرقية ، وحكايات ما قبل النوم ، ولقطات السينما والتليفزيون . .

وربما كانت الصدمة قوية ، لأننى منذ كنت صبيا ، وخيالى الجامح يصور لى حلما لذيذا . . أن أكون سلطانا . . تلتف حوله الجوارى . . يرقصن . . يلعبن . . ويتحركن بلا حرج ، وبلا حياء .

وكان هذا الخيال نشطا وأنا على عتبة الرجولة ، وفى قلب جحيم

المراهقة . . ثم . . تراجع فى زحمة الواقع . . ثم . . ما أن امنت بحق المرأة فى الحياة الكريمة حتى ذاب تماما .

على أن هذا الخيال عاد يتراقص امامى ، وأنا فى طريقى الى الحرملك . . لكن . . هذه المرة تحول الخيال إلى قرف . . وغثيان . . وكابوس .

ووقفت على باب الحرملك . . آسف باب السجن . . الباب مصنوع من الحديد المصمت . . سمكه ربع متر ، وارتفاعه ٥ أمتار ، ووزنه ٣٥٠ كيلو جرام . . وليس به سوى فتحة صغيرة جداً ، تكفى بالكاد لمعرفة من يقف أمامه . . مثل كوة ابواب السجون .

ولك أن تتخيل شكل وطول ووزن مفتاح هذا الباب .

ولك أن تتخيل قوة من يدير المفتاح فى هذا الباب . . وقوة من يحركه . . بعد أن يفتحه . . لابد أن يكون مارداً ، وعملاقاً ، ومجنوناً . . فلا عقل لمن يبدد طاقته فى فتح وغلق مثل هذا الباب . . أنه فى رأيى مثل رجل جبار ، قرر ذات صباح أن يحرك جبل المقطم ، لأن زوجته تشكو من التراب . لكنك تدهش لو عرفت أن رجالاً أشداء كانوا يتقاتلون من أجل وظيفة فتح هذا الباب وقفله . . وكانوا جميعا فى كامل قواهم البدنية والعقلية . . والسبب أن من يحظى بالوظيفة كان يأكل مجانا على قفا السلطان . . كل يوم حوالى ٣ كيلو لحم ، ٣٠ رغيفا ، ٣ كيلو أرز . . كما أنه كان يأكل أكثر مما يعمل . . كان من النادر أن يعمل . . كان من النادر أن يفتح الباب . . فالباب لم يكن ليفتح إلا فى حالات

الـوفـاة . . وفى حالة الخروج الجماعى لكل من فى الحرملك عند نهاية سلطان ، وبداية سلطان آخر . . عند خروج حريم ودخول حريم ... ولم يكن السلاطين يستخدمون هذا الباب عند دخولهم الحرملك . . كان لهم باب آخر ، من ناحية مبنى العرش .

وحارس البوابة لم يكن رجلا بمعنى الكلمة . . كان خصيا . . له جسم رجـل . . وعقل طفل . . وأخلاص كلب . . وأحاسيس تشبه أحاسيس الباب الذى يقف وراءه .

وعـلى البـاب الآن توجد لافتة مكتوب عليها كلمة « حريم » أو « هريم » لأنها مكتوبة باللغة الانجليزية . . واللافتة جديدة . . كتبتها إدارة المتحف .

على الباب أيضا لائحة طويلة من التعليمات والنصائح . . وصايا ليست للسياح ولا لكبار الزوار . . وأنها للجوارى . . للحريم ، اللائى يدخلن الحرملك أول مرة ، ويصبحن ـ بمجرد تخطى العتبة ـ جزء من جيش متعة السلطان .

كان على الجـارية قبـل أن تخطى العتبـة أن تحفظ هذه الوصايا ، وترددها أكثر من مرة على المشرفة . . والمشرفة لابد أن تكون صارمة ، قادرة على السيطرة وفرض الطاعة ،ولأنها كانت كذلك فقد ساهمت كثيراً فى المؤامرات . . ولأنها كانت كذلك ، فقد فرضت على كل جارية جديدة شخصيتها وقصت من أول لحظة ريشها .

كانت المشرفة تتسلم الجارية الجديدة ليلا . . حتى لاترى الجارية

ما حولها . . وحتى لاتجد من يحذرها من مصيرها المظلم . . وكانت تفرض على الجارية أن تخلع كل ملابسها . . أن تصبح عارية تماما . . كما ولدتها أمها . . البرد لايهم ، ولا المطر ، ولا حتى الجليد . . أن ذلك كان الخطوة الأولى فى التحطيم النفسى . . أن تشعر الجارية أن العرى شىء سهل . . بسيط جداً . . وأن تشعر أنها ضعيفة ، لاحول لها ولا قوة . . وأنها يجب أن تُطيع الأوامر . . وتفتح أذنيها لكل ما يقال لها . .

تقُف الجارية عارية مدة طويلة من الوقت ، وتقف المشرفة أمامها صامته لاترد على أسئلتها . . وعندما تيأس الجارية ، وتصمت وتنكمش على نفسها ، تبدأ المشرفة فى تلقينها التعليمات المكتوبة على المدخل ، ولاتسمح لها بالدخول إلا إذا حفظتها واقسمت على أن تعمل بها ، ولاتخالفها .

والتعليمات مكتوبة باللغة التركية ، وقد حاولت المستحيل مع المرافق لكى يترجمها . . وبصعوبة قبل . . بشرط أن أعرفها ولا أكتبها . . أى اسمعها ولا أسجلها . . والتقطت ذاكرتى بسرعة كل ما قرأه وترجمه . . وفى الفندق كتبت على ورقة ما كان فى رأسى . . كتبت الوصايا التى كان على الجوارى حفظها وتنفيذها . .

لاتأكلى الا ما يقدم لك .

لاتبوحى بسر السلطان . .

لاترتدى ثيابا مثل جاريتك .

احفظى جيدا مواعيد مرضك الشهرى .

كونى إمرأة ، مستعدة فى أى لحظة .

الرقص والغناء جزء من أنوثتك .

نظافة جسدك عملك الوحيد .

ولا ترتدى الجارية الجديدة ثيابها ، ولا يسمح لها بدخول الحرملك إلا بعد أن تحفظ هذه الوصايا عن ظهر قلب .

ولـو حدث أن فعلت أى جارية مايُشير إلى أنها نسيت واحدة منها ، فلابد من العقاب والعقاب متنوع . . حرمانها من السلطان أو حرمانها من الطعام أو السباحة أو سماع الموسيقى . .

ولم تكن هذه كل التعليمات .

كانت هنـاك تعليمات أخـرى أشـد . . الحمام بميعاد . . الكلام بأدب . . السباحة بالدور . . حفظ الشعر فى صمت . . التدريب على الغناء والموسيقى دون صخب ، وكان محرما على الجوارى النظر من النوافذ ، أو مسك سيرة أحد أفراد عائلة السلطان أو الكلام عن الحب . . إلا حب مولاهـا السلطان . . وطبعـاً الهـرب . . أو محاولـة الهرب . . أو حتى التفكير فى الهرب من المكان . . كان جريمة . . أصعب جريمة . . أكبر الكبائر . . هنا . .

والجارية التى كانت تخالف هذه التعليمات تجلد .

أما التى كانت تحاول أو تفكر فى الهرب . . فتذبح .

عرفت هذا من مرافقى . . اسمه « عدنان أوغلو » . . من أصل

عراقى . . يتحدث التركية والعربية والانجليزية بطلاقة . . ويعرف القليل من الفرنسية والألمانية . . جاء أستنبول ليدرس فى جامعتها . . وقع فى هوى امرأة تركية . . نسى نفسه وتزوجها . . ولأن وطن الرجل بلد زوجته كما يقول جحا ، فقد بقى فى تركيا من يومها ، ولايزال . . عاش فيها ٣٠ سنة ولايفكر فى أن يتركها .

عرفت ذلك منه ونحن ندردش فى انتظار مفتاح الحرملك .

وجاء المفتاح . .

وجاء محمولاً على كتف رجل وكأنه بندقية .

وأدخل الرجل المفتاح فى ثقب الباب بصعوبة . . وجاء ثلاثة من جنود الحراسة ، ليساعدوا فى تحريكه . . وكان لابد أن تحكم القافية . .

سألت المرافق :

تفتكر لو كان السلطان هو الذى يفتح الباب بنفسه ، كان جرى أيه ؟

قال :

كان تنازل عن العرش !

أو كان تنازل عن الحرملك .

تفتكر ؟

قطعا . . لأن نفسه كان سينقطع من أول مرة .

اتفضل . . ادخل .

ودخلت . . .

ممر طويل . . طوله حوالى ١٥ متراً . . فى نهايته على اليمين عنبر الخصيان . . فى العنبر كان يعيش الخصيان . . داخل العنبر مصاطب من الحجارة كانوا ينامون عليها . . وسلاسل من الحديد مربوطة فى حلقة مثبتة فى الجدار ، لا أعرف فيماذا كانوا يستخدمونها . . فى نهاية العنبر على شمالك سلم ضيق . . والسلم يؤدى إلى حجرة مظلمة ، والحجرة ليس فيها نوافذ ولا فتحات تهوية ، ولا تدخلها الشمس طبعاً ، والهواء يدخلها من الباب فقط . . والباب أقل من الأبواب الأخرى ، ولابد أن تحنى رأسك وظهرك حتى تمر منه .

مكان نموذجى للتعذيب .

وهو فعلا كذلك .

فهذه الحجرة كانت مخصصة لتعذيب الخصيان .

ولابد أنك ستسأل الآن نفس السؤال الذى سألته أنا لحظة دخول هذه الحجرة . . عن الجريمة التى يمكن أن يرتكبها شخص بتروا أعضاءه التناسلية ، ويعيش فى الحرملك ، بين النساء والجوارى كالحمل الوديع ! !

ولا أحد يعرف الأجابة .

ربما كانت جريمة الخصى أنه كان ينام أكثر مما يعمل . . أو يأكل

أكثر مما يعمل . . ربما كانت جريمته أنه تسامح مع جارية وتركها تنظر من النافذة . . ربما سمعها تمسك بسيرة السلطان ولم يبلغ عنها مباحث الآداب . . أو مباحث أمن السلطان .

لا أحد يعرف بالضبط . . الذى يعرفونه بالضبط أن الخصى كانت مهمتـه رعـاية ، الجـوارى . . يسـاعـدهن فى الاستحـمام . . ويدلك أجســادهن . . ويتــولى حراستهن . والخصى كان آكثــر اهمية من الجارية . . وأغلى منها وأندر ، فمن السهل الحصول على الجوارى ، ومن الصعب الحصول على خصى ، وسعر الخصى كان أكثر من سبعة أمثال الجـارية . . كان سعـر الجـارية فى بداية هذا القرن حوالى ٧٥ جنيها استرلينيا وكان سعر الخصى لايقل عن ٥٠٠ جنيه أسترلينى .

وسبب ذلك هو الخسارة الفادحة فى الأرواح التى كانت تنجم عن عملية الخصى ، البشعة وغير الإنسانية .

حتى القرن السابع عشر ، كان هناك خصى من البيض ، يأتون من آسياالوسطى ،لكن ذلك توقف فى بداية ذلك القرن تقريبا ، فاستدار تجار الـرقيق إلى أفـريقيا . . وخاصة فى مدن مثـل كيلوا ، وسـوفالا ، ومقديشيو ، وماليندى ، وومومباسا ، وزنجبار . . والخرطوم . . وحتى القـرن التـاسـع عشر كان الخصيان السـود يشحنون من ساحل شرق أفـريقيا ، ويشـترون بأسعار باهظة فى أسواق الرق المنتشرة فى القاهرة وطهران وأستنبول ، وشمال الهند . . ولم تلغ هذه التجارة رسميا فى مصر وتركيا وايران إلا فى القرن العشرين .

وفى بعض مراكـز تصدير العبيد فى أفريقيا ، كانت تجرى ٣٠٠٠ عملية سنوية من أجـل الحصـول على الخصى . . وكانت الخسائر فى الأرواح مفزعة . . حالة واحدة ناجحة من كل خمس عمليات . . وأحيانا حالـة واحـدة ناجحة من كل عشر عمليات . . حسب خبرة من يقوم بها . . كان يقوم بهذه العملية الآباء والسحرة وشيوخ القبائل . . كانوا يخدرون الصبيان تخديراً كاملاً ، ثم يستأصلون الأعضاء التناسلية لديهم بالكـامل . . ثم يصبون الزيت المغلى ليسد مكان الجرح . . ثم يضعون كمادات من أوراق النباتات المطحونة فوقه . . وإذا لم يصب الصبى بتلوث فى المثانة يؤدى إلى وفاته خلال ستة أيام ، فإنه يكون قد تخطى مرحلة الخـطر ، ويغـذى ليسـترد قوته . . فيعطوا له اللحم النيىء الغارق فى الشـطة والفلفـل . . والعسـل . . وبعد شهر يستكمل الصبى شفاءه ويصبح جاهزا للتصدير .

كانت هذه العملية تجرى للصغار الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والخامسة عشرة . . وكان ٦٠٪ منهم يموتون خلال ٢٤ ساعة . . لهذا فهم بضاعة نادرة . . سعرها مرتفع . . والتكالب عليها شديد .

وكان للخصى مكانة خاصة فى قلب وعقل سيده . . وكان سيده يعلمه لكى يصبح سكرتيره الخاص بلغة العصر . . أو تابعه المخلص الأمين وكاتم أسراره بلغة تلك الأيام . . وكانت حالته المحايدة ، لاهو ذكر ، ولا هو أنثى ، تجعله حارسا جيداً ، يعتمد عليه فى كل شىء ، بما فى ذلك خدمة الحريم ، ورعاية الجوارى ، كما كان يفعل سلاطين الأتراك ، وأباطرة الهنود .

ولأن الخصى كان محل ثقة ورعايه السلطان ، فقد كان السلطان لايحتمل منه أى هفوة . . كانت هفوة الخصى الصغيرة جريمة كبرى يستحق عليها العقاب . . وكان العقاب يتم فى داخل تلك الحجرة المظلمة . . وكان العقاب شديداً . . الجلد . . الصلب أحيانا . . والحرمان من الماء والطعام غالبا .

ولأنه كان مقربا من السلطان ، فقد كان عقابه يتم سراً ، ولايعرف به سكان الحرملك وخاصة الجوارى ، حتى لايسخرن منه ، أو يشمتن فيه ، فيفقد السيطرة عليهن .

لذلك كانت حجرة تعذيب الخصيان فى مكان بعيد عن عنابر وحجرات الحريم والجوارى ، فى دور علوى معزول .

والسلاطين كانوا يشترون الخصيان والجوارى والعبيد ، لكن أحيانا كانوا يُقدموا إليهم كهدايا من حكام الولايات والوزراء والأثرياء والراغبين فى كسب ودهم .

والجوارى البيض كن يأتين من قبائل تعيش فى جورجيا وقبائل الجراكسة فى منطقة البحر الأسود . . كانت هذه القبائل تبيع بناتها ، معتقدة أنهن سيعشن فى نعيم وراحة وترف .

أما الجوارى السود فكن يأتين من أفريقيا . . وخاصة من أثيوبيا والصومال . . والطلب كان أكثر على الأثيوبيات لجمالهن وذكائهن . . وعلى الصوماليات لرشاقتهن وقدرتهن الفائقة على الرقص وعزف الموسيقى . . . إلخ .

وأيضـا كان العبيد المفضلون للسلاطين العثمانيين يأتون من أثيوبيا والصومال ، وكان سعر الواحد نحو ثلاثة أضعاف سعر العبد الأفريقى الـزنجى . . فهـو رشيق . . نحيل مثـل عود الخيزران . . وهـو دقيق المـلامح والتقاطيع . . مفرود الشعر . . واسع العينين ، وهو ذو لون غير داكن الســواد . . أقــرب إلى لون القهـوة باللبن . . وهـو مطيع . . مؤدب . . لايثير المتاعب .

ورغم أن الأتراك كانوا حريصين على عدم التجانس مع العبيد ، حتى أن بعض السلاطين قتلوا أولادهم من الجوارى السود ، فإن ذلك لم يمنع تسرب كثير من العادات الأفريقية إلى بلادهم . . مثل السحر . . والشعوذة . . والزار .

والـزار ممنـوع قانونا الآن ، فى تركيا . . والمخدرات أيضا . لكن الـرجـال يدخنـون المخدرات ويزرعونها ويهربونها إلى الدول المحيطة ، والقريبة . . والنساء يقمن باداء الزار ، ويستدعين « الأسياد » على إيقاع الـدفـوف ، ويتخلصن من متـاعبهن النفسية والعصبية بعـد أن يجدن أنفسهن فى فراش واحـد مع « الأرواح » . . أى أرواح ؟ الله أعلم ، وكودية الزار والرجال الذين يعملون معها ! !

وقـد قالت لى صحفية تركية شابـة : أن الملكة نازلى ، أم الملك فاروق ، كانت تستقبل فى حفلات الزار التى كانت تقيمها فى قصرها فى القاهرة ، نساء العائلات التركية الشهيرة ، اللاتى كن يسافرن خصيصا من أستنبول إلى مصر لهذه المهمة .

قالت لى أيضا : أن بنات وشبان الجامعة يقيمون مثل هذه الحفلات الآن على ايقـاع موسيقى الجـاز الحـديثـة ، وأن كانـوا يخلعون ثيابهم الأفرنجية ، ويرتدون ثيابا أخرى أفريقية . . ولو ضبطتهم الشرطة فإنهم يطردون من كلياتهم . . ولـوضبط الكبـار فالسجن يكـون عقابهم . . والقـانـون يعـامـل المرأة التى يقتلها زوجها فى زار ، مثلما يعامل المرأة الخائنة . . يفرج عن زوجها ، لأنه يُعتبر فى حالة دفاع شرعى عن العرض .

ولو طبق هذا القانون فى مصر ، لقتلت ربع النساء على الأقل .

نعود الآن إلى الحرملك .

لقد رأينا غرفة تعذيب الخصيان ، ونزلنا على السلم الضيق ، وعدنا إلى الدور الأرضى مرة أخرى .

بعيد عن عنبر الخصيان بحوالى ١٥٠ مترا على الأقل سنجد مدخل الحريم . . المدخل عبارة عن بوابة صغيرة على جانبيها مرآتان كبيرتان لم تفقدا بريقهما بعد ، رغم أنهما ترجعان إلى عام ١٥٧٨ ، عام بناء القصر والحرملك ، أى منذ ٤٠٠ سنة تقريبا .

ولعلك تحسرت الآن مثـلى على دقـة ومهارة أيام زمان . . ولعلك سخرت الآن مثلى من ضمائر صناع هذا الزمن .

أن ذلـك لن يحدث لك لو شاهـدت مرايا الحـرملك فقط ، وأنما سيحدث لك أيضا لو تأملت كل شىء هنا . . أحواض الحمامات . .

سجاجيد الأرض . . نقوش الجدران . . التابلوهات المحفورة فى السقف . . الثياب . . الشمعدانات . . وحتى بلاط القيشانى والموزيكو الذى ينتشر فى كل مكان .

ويصورة خاصة لابد أن تعجب بكل الحرفيين الذين عملوا هنا . . وهم بالمناسبة كانوا من مصر . . النقاش . . السباك . . رسام الجدران . . نحات الزخارف البارزة. . ولأننا نعانى من انهيار الحرف على يد أحفادهم ، فلابد أن نقرأ على ارواحهم الفاتحة .

بعد المدخل مباشرة صالة بيضاوية رطبة . . على يسارها المكان الذى كان ، مخصصا لتوزيع الطعام . . وعلى اليمين باقى أقسام الخدمات . . الحياكة . . التطريز . . فرد الثياب . . حلاقة الشعر وتصفيفه . . وباقى خدمات المكياج والتجميل .

الصالة البيضاوية تؤدى إلى جناح السلطانه ـ الأم .

الجناح يتكون من ٤٠ حجرة . . وهو أكبر عدد من الحجرات تحتله أمرأة فى الحرملك ، الذى يصل عدد حجراته إلى ٤٠٠ حجرة .

فى أكبر حجرات الجناح « منضدة » كبيرة . . عريضة ، وأن كانت لاترتفع عن الأرض بأكثر من ١٥ سنتيمترا . . كأنها طبلية . . لكنها « طبلية » توضع فى متحف لأنها تحفة من الخشب والمحفور ، والمنقوش ، والمدهون على لونه الطبيعى . . وحول المنضدة المهداة من الصين إلى السلطانه الأم عدد كبير من الوسائد الحريرية الناعمة . .

بعضها محشو بالقطن ، وأغلبها محشو بالريش . . والوسائد هى المقاعد المناسبة لهذه « السفرة » القريبة من الأرض . . وعلى الجدران لوحات تصور مشاهد من الطبيعة وتملأ الجدران . . جبال . . خضرة . . أزهار . . مياه . . جليد . . طبيعة حية لا صامته .

على جانبى الحجرة أربعة حمامات . . مساحة كل منها مساحة شقة كالتى نعيش فيها الآن . . إن وجدناها .

وداخل كل حمام ستجد « بانيو » كبيرا من الرخام . . أو قل عليه « مغطس » أو هو أقرب ما يكون إلى حمام سباحة صغير . . حمام داخلى . . ومن الحائط تخرج ثلاثة « صنابير » مياه تصب فى حوض من المرمر ، محفور على شكل طائر الطاووس . . وبجانب البانيو ـ المغطس مصطبة من الرخام ، تستخدم كفراش للتدليك . . وبجانب المصطبة دولاب للمناشف والبرانس . . وأمامها مرآة بحجم الشخص الطبيعى .

وتشعر فى داخل الحمام أنك فى مكان مكيف . . لا حر . . لا برد . . لا رطوبة . . ولا أخفى عليك أننى شعرت بالأرتياح هنا . . وتمنيت أن أجد مكانا على هذا النحو لا لأستخدمه كحمام ، وأنما لأستخدمه كحجرة نوم ، وحجرة مكتب معا .

ورغم السنوات الطويلة التى مرت ، فالحمامات نظيفة جداً . . تكاد تبرق . . وهذه عادة تركية أصيلة . . الأهتمام الزائد بالحمام إلى حد الهوس . . والأتراك يقولون أن البيت يُعرف من الحمام . . ويقال أن الأم

التركية عندما تختبر عروس ابنها تشد شعرها ، وتطلب منها تكسير الياميش بأسنانها ، وتراها وهى تنظف الحمام .

وحتى وقت قريب لم يكن فى البيوت حمامات خاصة . . وكان الاتراك يستحمون فى حمامات عامة ، تلك التى لا تزال تنسب لهم حتى الآن فى مصر وتونس والمغرب والجزائر . . وتسمى بالحمامات التركية . وهى صحية أكثر من حمامات بيوتنا . . ففيها البخار . . وفيها التدليك الذى يفتح مسام الجلد . . وفيها الاسترخاء الذى يهدىء الأعصاب . . وقد انفض الناس عن هذه الحمامات فى تركيا وفى غيرها . . وأن بقيت حتى الآن فى فرنسا .

بجانب الحمامات الأربعة ، تقع حجرات السلطانة ـ الأم ، الأربعون . . والأربعون رقم له مغزى فى الأساطير التركية القديمة . . فهناك ٤٠ قيمة لابد أن يؤمن بها الإنسان . . وهناك ٤٠ كتابا لابد أن يقرأها الإنسان . . وهناك ٤٠ يوما يجب أن تمر على الأم بعد الولادة حتى تعود زوجة . . وهناك ٤٠ سنة لابد أن يعيشها الإنسان حتى يصل إلى سن الحكمة والنضج . . وهناك عادة زيارة القبور بعد الأربعين . . وهناك على بابا والأربعين حرامى . . وهناك أسطورة الأربعين حجرة التى يُسمح بدخول ٣٩ منها فقط . . ويحرم دخول الحجرة الأربعين . . الحجرة المسحورة ، إنها مثل شجرة التفاح المحرمة التى أكل منها آدم ، فأحس هو وحواء بعورتهما ، وهى جنون المعرفة مهما كان الثمن . . وهى نداء المجهول مهما كان المصير .

والفـراعنـة اعتقدوا أن روح الميت تحتاج ٤٠ يوما لتستقر فى العالم الآخـر . . والأمـريكان يقولون أن مجتمعهم يتغير تغيرا شاملاً كل ٤٠ سنـة . . وبعض القبائل ، الأفريقية تقتل الطفل الأربعين الذى تلده نساء شيخ القبيلة ، وتستخدم دمه فى السحر ، والتقرب إلى الآلهة . . غريب هذا الرقم فى حياة كل الشعوب على مر العصور .

لكن . . كل ذلك لاعلاقة له بالأربعين حجرة التى يضمها جناح السلطانــة ـ الأم، إنسر هذه الحجـرات الأربعـين غير معـروف حتى الآن . . هناك من يقول أن رقم ٤٠ عند التتار كان ضد الحسد . . وهناك من يقول أن التتار أرادوا تضليل عزرائيل ، فكانوا يغيرون أماكن نومهم كل ليلة . . ومع أنهم اسلموا بقى الاعتقاد فى تاريخهم ، ومع أن كتاب الله يقول أن الموت سيدركنا ولو كنا فى بروج مشيدة ، فإنهم لم يتحرروا من الخـرافـات القديمة . . لذلك فالسلطانة ـ الأم لها ٤٠ حجرة . . وهنـاك من يؤكد أن سر الأربعين حجرة ليس الهروب من الموت ، ولا تضليل عزرائـيل وأنـما الهـروب من الإغتيال ، وتضليل أصحـاب المؤمـرات . . وأغلب الـظن أن هذا التفسير أقرب إلى العقل والمنطق والواقع . . واقع الدولة العثمانية .

ثم لماذا لايكون هناك تفسير على الأطلاق . . لماذا لاتكون الأربعون حجـرة مسألـة وجاهـة . . اليست السلطانـة ـ الأم ، هى الكل فى الكل . . اليس من حقها أن تعيش فى ٤٠٠ حجرة لا فى أربعين فقط .

لو تخطيت منطقة السلطانة ـ الأم، ستجد نفسك فى صالة كبيرة ،

فى مساحة ميدان من ميادين القاهرة ، أو أستنبول . . بها نافورة فى الوسط ، ومفروشة بالسجاجيد العجمى والشنواه . . وإمام النافورة مقصورة من الخشب ، ترتفع قليلا عن الأرض . . على اطرافها الأربعة أعمدة من الرخام ، تحمل سقفا من الخشب المحفور والمزخرف ، والمفرغ ، والمطلى بالذهب . . على طرفى المقصورة سوران قصيران من الأعمدة الخشبية الرفيعة والمغطاة بطبقة من الفضة . . وظهر المقصورة من الخشب ، المفرغ فيه مساحات طولية كالبراويز ، مغطاة بالقيشانى . . وعلى ارضية المقصورة كنبة عريضة ، مساندها مرتفعة ، ومغطاة بقماش من الحرير ، وحروف الخشب البارزة منها مغطاة بالذهب .

هذه مقصورة السلطان .

هنا مجلس السلطان فى الحرملك .

هنا كان يتذوق المتعة .

الصالة كلها مغطاة بالقيشانى والخشب ، وبها ، أحواض صغيرة جداً من المرمر . . وبها مناضد متناثرة من الفضة ، وبها فوانيس تتدلى من الأطراف . . ومهما وصفت لك لن تتخيل الجمال والترف . . ولا النقوش والزخارف . . ولا التفاصيل والألوان . . إن وصفى أقرب إلى وصف من سيبيع الصالة فى مزاد ، وأبعد من وصف من يريد أن ينقل الصورة لك . . وأنا اعترف بعجزى . . أعترف أن الانبهار الذى وجدت نفسى فيه جعل قلمى لايطاوعنى . . وحتى أقرب الصورة أرجوك أن تذهب الى القصور الملكية فى مصر . . أنها على الأقل قطعة من الترف الذى

رأيت . . فإن لم تستطع فتأمل الأفلام السينمائية التى صورت فى هذه القصور . . أنا آسف . . لكن ما باليد والقلم والقدرة على التعبير حيلة .

صالة السلطان فى قلب الحرملك، هى مثل المنور الذى تحيط به المبانى ، فهناك دور علوى كامل يلف على الصالة ويطل عليها . . والدور العلوى مقسم إلى حجرات، وفى هذه الحجرات تعيش وتنام الجوارى ويستقبلن السلطان أيضا .

أمام مقصورة السلطان أرض المسرح . . المسرح الذى سترقص عليه الجوارى ، ولو تخيلنا الآن أن الجوارى يرقصن أمام السلطان بملابسهن الشفافة ، الحرير ، التى تحركها نسمة الهواء ، فإن السلطان سيكون مضطجعا الآن على الكنبة ، ويبلع انفاسه بصعوبة ، ويمسح أنفه بظهر يده فى توتر واضح . . وعلى الجانبين أكثر من عبد أسود يحرك مراوح الريش ذات اليد الطويلة ، ويخفف من حدة هذا التوتر .

ولابد من محظيات بالقرب من السلطان ، يقدمن له حبات الفاكهة ، ويطرقعن أصابع يديه وقدميه ، ويتعاملن معه كصبى مدلل لايرد له طلب . . مهما كان هذا الطلب .

وهناك فى التاريخ السرى للسلاطين الاتراك فرق بين المحظية والجارية . . والفرق يحدده السلطان حسب هواه . . والمحظية جارية مختارة . . أى مفضلة . . لذلك فلها حجرتان . . لا حجرة واحدة . . ولها كلمة . . ولها وصيفة . . وأولادها ينسبون إلى السلطان . . ويعاملون كأمراء . . ولهم الحق فى الألقاب والميراث .

وبعض السلاطين كانوا أكثر تواضعا وقبلوا نسبة أولاد الجوارى لهم أيضـا . . وقد خلق هذا الكثير من الصدامات والصراعات والمؤمرات وأسال الكثير من الدماء .

العـادة جرت أن يجلس السلطان بمفـرده فى المقصورة فى مواجهة الراقصات . . وعلى الجانبين كان يجلس أولاده أحيانا .

أمـا الأم والبنـات ومـا تبقى من الحريم ، فكن يجلسن فى الدور العلوى ، يشـاهدن « الشـو» من أعـلى ، مع عازفـات الموسيقى ، والخصيان الذين أنهوا أعمالهم .

وفى الدور العلوى ، حيث سكن الجوارى ، يقع جناح السلطان الخاص ، والجناح يقع فى قلب منطقة الجوارى . . فى قلب الحرملك .

وكـل سلطان جديد كان يزيل آثار السـلطان الـذى قبله فى الحـرملك . . يغـير الـديكـورات والستـائـر . والأثـاث . . والجوارى طبعا . . ويدخل بعض التعديلات ويضيف مبانٍ لم تكن موجودة أن أمكنه ذلك . . أن الأنقلاب على السلطة كان يبدأ بالعرش وينتهى بالحرملك .

لو نزلنـا إلى الـدور الأرضى مرة أخـرى ، وتـركنـا صالة الرقص والمـوسيقى والمنـوعـات ،فسنجد أنفسنا فى حديقة كبيرة . . بها حوض سباحة ضخم جداً ، يصلح لأقامة بطولة دولية فى فن العوم . . وبجانب الحديقة مبانٍ متفرقة . . ومتنوعة .

مبنى صغير أقرب للفيلا يسمى « القفص الذهبى » كان مخصصا لأبناء السلطان البالغين ، يقضون فيه أوقات فراغهم . . والباقى مفهوم .

ومبنى كبير أقرب إلى عنابر جنود الجيش، كان فى الأصل مستشفى للولادة . . ومستشفى الـولادة مسألة حيوية هنا فى مكان يجمع حوالى ٤٠٠ امــرأة قابــلات للانجــاب . . والمستشفى كان لايتــوقف عن العمل . . ولايمر شهر إلا ويمتلىء بصراخ عدد من الأولاد . . أولاد السلطان .

والسلطان لم يكن يعرف بالطبع كل أولاده .

وكان على كل أم أن تذكره بهم .

وأحـدى مهـام السلطانـة ـ الأم وضـع أولاد السلطان فى مكانهم الصحيح على فروع شجرةالعائلة،وكان عليها مراقبة الانساب بدقة .

وبعض الســلاطـين كانـوا يعتـبرون الأنـوثـة صفـة مستقلة عن الأمومة . . فكانت المرأة التى تنجب تكرم كأم ، لكنها تُعزل كجارية . . وتُبعد عن عنابر المتعة . . وتترك حجرتها لجارية أخرى لم ينتفخ رحمها من قبل بجنين .

وتمادى البعض الآخر ففصل بين الأنوثة والعذرية . . فكان ينال الفتــاة مرة واحدة ، ولايقربها بعد ذلك أبدا . . ثم كان يتخلص منها

بمنحها صرة من الذهب واطلاق سراحها ، أو تقديمها هدية إلى رجل من رجاله ، فيأخذها وهو يشعر أنه نال أرفع الأوسمة .

وكـان من عادة السـلاطين فى الأعياد أن يتجـولـوا فى طرقـات الحرملك ، وخلفهم الاتباع يحملون صناديق العملات الذهبية . وبعد الصـلاة ، ترش العمـلات الـذهبية على الجـوارى . . لذلـك سميت الطرقات التى تلف حجرات الحريم والجوارى بطريق الذهب .

ولـو سرت فى هذا الـطريق الآن فلن تجد ذهبا بالقطع . . لكنك ستجد نفسك خارج الحرملك وهذا أغلى من الذهب .

وبالتأكيد . . أثمن من الذهب . . . الحرية .

سهرة على الحساب !

قبل أن تغادر تركيا . . . أدعوك للسهر .

والسهر فى تركيا بالملابس الكاملة . . لا أقول الملابس الرسمية . . والملابس الكاملة تلك التى وجدت نفسك فيها فى « الكوشة » ذات ليلة لاتنسى . . أما الملابس الرسمية فهى ملابس لها شروط صارمة تفرضها قواعد البروتوكول الدبلوماسى ، والخروج عن هذه الشروط . . أو من هذه الملابس يهدد بنشوب حرب بين دولتين على الأقل .

إذا أردت السهر فى تركيا . . بلاد « العنطزه »فعليك أن ترتدى بدلة كاملة . . وبابيون وحذاء يبرق فى الظلام . . ويفضل طبعاً أن ترتدى بدلــة لاعبى « البيانــولا » الشهــيرة ، التى يطلق عليهــا العُقــلاء « سموكينج » .

ولن تصدقنى إن قلت لك أننى لم أرتــد المــلابس الكـاملة يوم

تزوجت . . ولن تصدقنى لو قلت لك أننى لا أعرف حتى الآن كيف يعقدون تلك المشنقة المهذبة التى يسمونها « كرافتة » . . مثل توفيق الحكيم . . حاولت . . وفشلت . . وتركت هذه المهمة المستحيلة لأصدقائى الذين يكتمون السر ولايحبون الفضائح . . أتحدث عن « الكرفته » لا عن « البابيون » . . البابيون بالمناسبة مؤنث لا مذكر ، فالكلمة تعنى فى اللغة الأنجليزية « فراشة » . . لكنها فراشة تحط على رقبتك ولا تطير .

ولأن الدنيا برد جداً ، فإن الملابس الكاملة كانت من طبائع الأمور . . ولا أخفيك سراً أننى كنت مستعداً للنوم بالملابس الكاملة . . مع أننى فى حياتى المعتادة لا أعترف بعبقرى واحد من ملوك الموضة والذوق إلا ذلك الذى ابتكر ثياب البلو ـ جينز . . وهو بالمناسبة فلاح أمريكى من كاليفورنيا . . لايختلف كثيرا عن فلاح مصرى من الدلنجات وجد فى الجلباب الأزرق نفس المزايا . . التحمل . . والغسيل من السنة إلى السنة . . وكان ذلك منذ ٤٠ قرنا .

أهم من الثياب النقود .

وأهم من البابيون دفتر الشيكات .

فالسهر فى تركيا للأغنياء . . والأغنياء فقط .

أما الفقراء فلهم التليفزيون والأنجاب . . وأما السياح من أنصار حزب الهيبز فلهم التسكع فى الشوارع ، أو الفرجة على السينما ، أو النوم

بعد العشاء مباشرة . . السهر فى تركيا ليس لهم . . الليل لن يرحب بهم . . ثم أن عليهم الاستيقاظ مع شروق الشمس . . نفس الوقت الذى ينتهى فيه السهر .

لابد أنك الآن اعتذرت عن السهر . . كلامى عن النقود هو السبب . . ورغبتك فى شراء سويتر شمواه من هنا أيضا .

لاعليك . . سأسهر نيابة عنك . . وسأدفع نيابة عنك . . سأدفع كل ما تبقى معى من نقود ـ حتى تعرف ماذا يجرى فى ليل تركيا . . وكيف يسهر الاتراك . . وماذا يفعلون من الليل إلى الفجر ؟

إن الليل الوجه الآخر من النهار . . والسهر هو الوجه الآخر للعمل . . والاستمتاع هو الوجه الآخر للشقاء . . ولا يمكن أن نرى بلدا لنصف الوقت . . أو بشرا لنصف الوقت . . أو وجها واحدا كل الوقت .

وفر نقودك ، ووقتك ، وصحتك ، واسترخ فى مقعدك ، وأقرأ هذا الكلام بأطمئنان .

نحن الآن فى الدور الأخير من فندق « جراند » . . انقرة .

الساعة تقترب من منتصف الليل . . الجو شديد البرودة فى الخارج ، دافىء جداً فى الداخل . . المطعم بلا جدران . . أو الجدران زجاج . . فرصة لترى أنقرة فى الليل . . السكون وسواد الظلام ، وبياض الجليد ، وشحوب الأضواء ، وأختفاء البشر ، وكبت الحكم

العسكرى يجعلك تشعر بحزن خفيف ، وأحساس أنك أكيد فى مدينة مهجورة .

داخل المطعم . . البانوراما،موسيقى ناعمة . . حزينة . . تخلع قلبك . . تتركه يطير باجنحة النغم الى حيث لاتراه . . أو لن تراه . . . يطرق بابه ، فيجده يرقص التانجو مع شخص آخر على ضوء الشموع . . الموسيقى يعزفها رجلان فوق الأربعين ، وفتاة تحت الثلاثين . . أنهم فى الحقيقة لايعزفون الموسيقى إنما يروون بالكمان والبيانو والبوق النحاس قصة كانت . . وحبا مضى . . وأياما كانت فيها البراءة خبز الحياة . . . وكل شىء حولهم وحولنا يشجع على ذلك . . الضوء الخافت . . الأبسطة الحمراء . . الزهرة الوحيدة على كل مائدة . . . آه يازمن الاشباع من نظرة . . من همسة . . من حلم . . يتحقق . . آه يازمن الدفء . . والجرأة . . والعشق القديم .

جاء شتاء القلب بعد صيف قصير . . لم تثمر شجرة الحب . . لهيب الشمع أصبح دموعا . . سكن البرد الضلوع . . وتساءلنا مع صلاح عبد الصبور : « من أين بالكلام ـ الفرح ؟ » . . ورددنا وراؤه ككورس مهزوم . . «وأعطيك ما أعطتنى الدنيا من التجريب والمهارة ، لقاء يوم واحد من البكارة» . . «الحب ياحبيبتى فى هذا الزمان ، كالخوف ينتهى بلحظة البكاء» «لا . . ليس غير أنت من يعيدنى للفارس القديم دون حساب الربح والخسارة» .

لقد سحبت الموسيقى البرد إلى الداخل . . داخلنا . . أحسست

رغم التدفئة برعشة تسرى فى جسدى . . طاردنى احساس قديم بأننى سأموت فى الغربة . . ذات مساء . . وانتفضت اغادر المكان وأنا أتساءل بينى وبين نفسى : هل أعوامى التى مضت كانت هباء !

لابد أنك تشعر الآن بالندم لأنك طاوعتنى وقبلت السهر . . لابد أنك تشعر الآن بالنكد . . وأنا أيضا . . والجرسون الذى خلفى .

قبل أن أغادر المطعم ، وجدت من يهمس فى اذنى :

ـ مستر هموده ؟

نعم ـ نعم !

ـ مكالمة تليفونية لك . . تفضل معى . . من هنا !

قطعت المطعم كله حتى وصلت الى كابينة التليفون . . الزبائن الذين لمحتهم فى طريقى أغلبهم فوق الأربعين ، وبعضهم فوق الستين . . الرجال فى ملابس السهرة ، والنساء يبرقن من الماس . . وزبائن فى قمة الأناقة ، والجرسونات أيضا . . وترى كيف يكون الحب فى قمة الأناقة ؟ . . ترى كيف يكون الحب بالشوكة والسكين ؟ . . لابد أنه ذلك الحب الذى يحتاج الى «اورديفر» ، . . الى فاتح للشهية . .

ـ آلو .

ـ آلو . عادل . . أين أنت ؟

ـ أتأمل أطباق الاوردفر هنا !

ـ مالك . . هل اشتدت عليك الانفلونزا ؟

ـ اين أنتم ؟

ـ تحت نفتش عنك .

ـ سأنزل حالا .

كان المتحدث صلاح حافظ . . وصلاح حافظ كاتب وفنان يعرف معنى السهر . . أحماله ثقيلة وتجاربه أيضا . . لكن . . احساسه بالحياة والناس أكبر ، وقدرته على الاستمتاع بالحياة أيضا . . إنه يتقن كل ما يفعل . . الصحافة . . الرواية . . السيناريو . . الغناء . . الدردشة . . الصداقة . . الطهى . . والسمر .

ولعله كان على حق عندما اتهمنى بالجنون لأننى فكرت فى السهر فى هذا المطعم . . فالمطعم لا يناسب إلا الرجال الذى يريدون الاختباء من زوجاتهم . . ونحن أشجع من ذلك . . لأن ـ زوجاتنا على بعد آلاف الأميال . . فى مصر .

حملتنا السيارة إلى مبنى لا يبتعد كثيرا عن الفندق . . المبنى من الخارج لا يسر . . لا أضواء تلعلع . . لا موسيقى تصرخ . . ولا نيون يتراقص . . ولا صور بالحجم الطبيعى لفاتنات الرقص الشرقى . . مبنى يمكن أن يصلح كدار للمناسبات . . يتقبل فيه الناس العزاء . . فى المدخل لافتة صغيرة لا تراها إلا بعد أن تدخل . . اللافتة باللغة التركية ، يعنى لا تفهم منها أى شىء .

لابد أنها ستكون مفاجأة لك لو عرفت أن المبنى ملهى ليلى . . بل ملهى ليلى طراز خمسة نجوم . . وسر اختفاء النيون والصخب من الخارج أن القانون يحرم ويجرم ذلك . . فالانبساط فى الداخل والصراخ والموسيقى والطرب وهز الوسط فى الداخل . . والتصدير للخارج ممنوع . والاستثناء لا يوجد . . ومن يعترض يشرب من البحر الأسود .

على المسرح مطربة . . حلوة . . وشابة . . وبطة . . وهى ممثلته مثل الممثلة نورا . . وجهها يحمل طفولة المطربة سميرة سعيد . . أما صوتها فقوى مثل صوت وردة وفايزة أحمد معا . . معبر مثل صوت أم كلثوم . . إنها نموذج للانثى التى تجيد الغناء . . فالصوت الجميل وحده لا يكفى عند الأتراك لابد أن تكون المطربة صوت وصورة . . وعندهم حق . . فأنا لا أستمع لغناء معظم مطرباتنا إلا فى الراديو . . فهن صوت فقط . . وإذا ما ظهرن فى التليفزيون فأنا لا أصدق ما يغنين إلا إذا كانت الكلمات تتحدث عن مقلب شربته المطربة من حبيب القلب الذى هرب من باب المطبخ بعد أن فوجىء بها وهى بدون مكياج ولا باروكة .

المطربة على المسرح صوتها حزين . . حنجرتها تبكى . . وشعرها فى لون الفحم ، والكحل وقلم رسم الحواجب . . وحول رقبتها إيشارب أسود من الحرير . . والفستان الطويل الذى ترتديه ينافس الليل عندما تنقطع الكهرباء . . وكلمات الأغنية تتحدث عن غدر الحبيب . وعينه الفارغة التى لا يملأها سوى التراب ومقابلته للوفاء بالخيانة ، والتضحية بالجحود ، والاخلاص بالعذاب . . نفس الموديل الذى نفضله وهو

موديل يؤكد أننا مرضى . . وإن الحب فيروس يجعلنا نقبل الهجر والتقلب على نار الشـوق ، والاستمتـاع بعـذاب الحبيب . . تخونـوه وعمـره ماخانكم . . قلبى . . ليه تخونوه . . نار ياحبيبى نار . . حبك نار . . بعدك نار . . أكاد أشك فى نفسى لأنى أكاد أشك فيك وأنت منى . . ياموزعين الشموع قلبى نصيبه فيه . . دا الحب عمره سنة والهجر عمره سنين . . آه من قيدك أدمى معصمى . . انهم يعطسون فى الميكرفونات فتنتشر جراثيم الحب . . وسرعان ما تظهر الأعراض . . وحتى نشفى لابد أن نتزوج . . الزواج مصحة الحب .

المطربـة على المسرح لاتزال تصرخ من آلام الحب . . والصمت يشجعها على الاستمرار،وهى من شدة الانفعال تمزق المنديل الذى بين يديهـا . . والمنـديل الـذى يتمـزق يأتى غيره . . وكـل منديل له لون مختلف . . والألـوان بالـترتيب أبيض . . أحمر . . أصفر . . أسود . . وأغلب الظن أن ذلك مقصود . . فهذه الألوان كلمات فى قاموس الحب . وأظنك لست فى حاجة إلى شرحها .

الأغـنية انتهت . . النـاس صفقت طويلا . . غريب أن نصفق لامرأة تصرخ من الحب . . فهل كان التصفيق إعجابا بالصوت . . أم تحية للصورة . . أم لأن مرحلة التعذيب انتهت؟ . . على خشبة المسرح اختلطت أوراق الورد بالمناديل الممزقة ، بدموع المطربة ، بنغمات تناثرت من العـود والكـمان . . المـطربة تجمع ما سقط منها . . إنها تزيل آثار الأغنية . . أو آثـار الهـزيمـة . . وتـترك الميدان إلى مطربة أخرى . . وهزيمة عاطفية أخرى .

المطربة الأخرى أجمل .. وصوتها أحلى .. وفستانها أشيك .. ويبدو أنها مشهورة أكثر .. فالتصفيق أطول .. والسكون بعد ذلك كان أشد .. الجرسونات كفوا عن الحركة، والجمهور فى الصالة حبس أنفاسه .. وتحول المسرح إلى معبد .

كلمات الأغنية مختلفة .. لكن .. المعنى واحد .. إخلاص المرأة ونذالة الرجل .. والأغنية انتهت .. والرجال صفقوا بحماس مثل النساء .. ويمكن أن نعتبر حماس النساء استفتاء علنيا ضد الرجال ، لكن .. من الصعب تفسير حماس الرجال .. هل هو نوع من التعالى .. لا مبالاة .. أم هو إعجاب مريض بالذات ؟!

فهمت من صديق تركى كان يجلس معنا أن المطربة الأخيرة أهدت أغنيتها إلى أستاذها الذى علمها الغناء وأخذ بيدها وهى فى بداية المشوار .. والرجل كان يجلس فى نهاية الصالة .. وبعد أن إنتهت من الغناء، نزلت من فوق المسرح، واتجهت إليه، لتقبله، وتنحنى له .. منتهى الوفاء والاحترام والاعتراف بالجميل .

ورغم أن المشهد يجعلك تشعر بالشبع ، فانهم قدموا بعده الطعام .. والطعام لا يقدم وعلى المسرح مطربة تغنى .. وربما كان السبب احترامهم الواضح للطرب .. وربما كان السبب الحالة التى يكون الزبائن عليها وهم يسمعون الأغانى العاطفية الحزينة .. فالقلب منقبض ، والمعدة متوترة ، والهضم لن يكون على مايرام .

وربما كان السبب ، هو أن الزبائن لابد أن يكونوا فى كامل قواهم .

العقلية ، وهم يطلبون الطعام . . فالأسعار نار . . أكثر سخونة من المطربات . . والأسعار مجنونة . . أكثر جنونا من الطماطم .

وفى قائمة الطعام ١٠٠ صنف وصنف . . وليس أمام كل صنف ، سعره . . منتهى الاهانة أن يضعوا السعر . . منتهى الاهانة أن تعرف سعر الطبق الذى ستأكله ، قبل أن تأكله . . ثم إن من يدخل مثل هذا المكان لابد أن يكون قوى القلب ، ولا يخشى الدفع . . أو قوى الجثة ، ويحتمل الضرب والسجن ، إذا لم يدفع .

ولن تفهم أسماء الأطعمة ، رغم إنها مكتوبة باللغة الانجليزية ، ولن تفهمها حتى ولو كانت مكتوبة باللغة العربية . . فالأسماء تركية . . ولا أحد يفك رموزها إلا الأتراك . . وحتى تصدقنى ، حاول أن تفهم الجرسون إنك تطلب واحد كبدة فراخ ، ستلف وتدور ، وتدوخ حتى تصل إلى غرضك . . لكنك لو قلت له : أيا در، سيحضر لك ماتريد بسهولة مع ابتسامة بعرض وجهه .

ولأنك لا تعرف اللغة التركية ، فالجرسون سيترجم لك ، وكلما ترجم أكثر ؛ اخترت أكثر . . ودفعت أكثر . . واعترف أن الجرسون الذى تولى الترجمة والشرح لنا كان قادرا على إثارة شهيتنا من مجرد الكلام . . ورغم ذلك كان ما فى جيبى من نقود أقوى من أى إغراء . . فاكتفيت بقطعة لحم مشوية وسلاطة زبادى ، وطبق مهلبية ، ورحت أسخر من الآخرين الذين طلبوا أضعاف أضعاف ما طلبت . . لكن . . السخرية انقلبت علىَّ ، عندما جاء الحساب . . فقد دفعت مثلما دفع كل منهما . .

٥٠ دولارا . . وبعد فوات الأوان فهمت أن الحد الأدنى هنا هو هذا الرقم .

وكانت الصدمة كافية لأن اعتزل السهر فى أنقرة بعد ذلك ، ورغم ملل التليفزيون ، فالتعامل معه أرحم . . أو بصراحة أرخص .

فى استنبول عاد إلىّ الحنين إلى السهر . . وفى ليلة السفر ، دخلت أغلى وأشهر ملهى ومطعم فى تركيا كلها . . اسمه . . «مكسيم» ، لكن لا علاقــة له بمكسيم باريس ، وإن كان بينهما الكثير من التعـاون والتنسيق ، وأوجه الشبه القوية . . الأسعار . . الخدمة . . وتنفيذ رغبة الزبون ، حتى ولو طلب لبن العصفور .

مكسيم ـ استنبول ـ يقع فى ميدان «تقسيم» . . أكبر ميادين المدينة العريقة . . وفى هذا الميدان ، يوجد فندق انتركونتننتال . وتمثال شهير لأتـاتـورك ، يقف فيه وسط نماذج متنـوعـة من الشعب . . إن ميدان «تقسيم» فى استنبول ، مثل ميدان التحرير فى القاهرة ، وميدان الطرف الأغـر فى لنـدن ، وميدان الأوبـرا فى فيينـا . . نفس الأهمية ، ونفس الحيوية . . وحيث الحياة لا تتوقف معظم ساعات النهار والليل .

المكان من الخارج له مدخل صغير ، لا يدل على اهميته . . يؤدى إلى سلم عريض مفروش بالسجاجيد الحمراء التى لها ملمس القطيفة . . وينتهى السلم إلى صالـة كبـيرة ، عليهـا لوحات زيتية ، مرسومة على الجـدران لأشهـر الملحنـين والمـطربين والموسيقيين الذين صنعوا تاريخ

الـطرب فى تركيا . . والصـالـة بها مكان خصص لاستلام المعاطف ، واستراحة ، ومحل لبيع الزهور .

والصـالة لها أكثر من باب ، والأبواب كلها تفتح على الملهى . . والملهى من الداخل مبني على الطراز الشرقى ـ العثمانى ، القديـم . . وعمره الآن أكثر من ١٠٠ سنة . . له شرفة كبيرة تواجه المسرح ، وهى مخصصة لكبار الزوار ، والنجوم ، والمشاهير . . فيها جلس ٤٠٠ ملك ورئـيس دولـة ، وزوجـاتهم . . مثـل الملك ادريس السنـوسى ، والامـبراطـور هيلاس لاسى ، والأميرة آن ، والملكة أليزابيث الثانية ، والمستشار الألمانى السابق هيلموت شميت . . وفيها جلس نجوم السينما والغنـاء والمـوسيقى فى العالم ، مثل اليزابيث تايلور ، وانتونى كوين ، وصـوفيا لورين ، ومـارى ماتيو ، وجـون هوليدى ، وفرنك سيناترا ، وأم كلثوم ، ومحمد عبدالوهاب . . وغيرهم .

الشرفـة عالية على باقى موائـد الصـالـة . . والمـوائـد قريبـة من المسرح . . والمسرح بعرض الصالة ، وله لسان بطول الصالة . . وشكله مثل حرف (T) . . وهو شكل المسرح عموما فى تركيا ، وهو شكل يتيح لمعظم الجالسين على الموائد أن يتابعوا ما يقدم فوقه ، ويتيح لمن يقف عليه أن يتحرك وسط الناس بسهولة ويكون قريبا منهم .

وعلى المسرح يقدم الغناء والرقص حتى الصباح . . والغناء شرقى ، وغربى ، والرقص أيضا . . ويتولى هذه المهمة أشهر الفنانين . . الذين لا يجدون أماكن أفضل من هذه الملاهى لتقديم ما عندهم . . الجمهور

هنا أرقى وأكثر قدرة على التذوق ، على عكس جمهور الملاهى فى باقى دول العالم .

وكـل مطربة هنا أجمل من أى إمرأة أخرى يمكن أن تراها فى أى مكان آخر . . الجمال التركى هنا على أصله . . وكل مطربة لا تغنى بثوب واحـد . . وإنـما لكل أغنية ثوب خاص . . فعندما تنتهى المطربة من أغنية، تختفى من فوق المسرح ، وقبل أن تنتهى الفرقة الموسيقية من عزف مقدمة أغنية أخرى ، تكون قد غيرت ثوبها ، وعادت بثوب جديد إلى المسرح . . وهكذا . . كل أغنية لها كلمات ولحن وأداء وفستان .

لذلـك فأجـر المـطربـة هنـا مرتفـع جدا . . حوالى ألف جنيه فى الليلة . . ولابد أن هذا الأجر يتضمن ثمن الفساتين ، ولابد أن ثمن الفساتين جزء من فاتورة الحساب التى سأدفعها .

وكل مطربة لا تغنى إلا مع فرقتها الخاصة ، وكل فرقة مكونة من ٣٠ عازفا على الأقل. وأغلب العازفين من المشاهير. يعنى أن أجورهم أيضا مرتفعة . . ويعنى أن أجورهم ستضاف على فاتورة الحساب التى سأدفعها .

وفى السهرة الواحدة ، تغنى ٥ مطربات على الأقل ، ووراءهن ١٥٠ عازفـا على الأقـل . . وبـين كل مطربـة وأخـرى ، استعـراض . . والاستعـراض إمـا فكـاهى ، أو رقص غربى ، لنساء من حزب ورقة التـوت ، وربـما ورقـة البـوستة . . والاستعراض الفكاهى ، يُضحك

الآخـرين ، ولن يضحكك لأنه باللغة التركية . . أما الرقص فمفهوم ، لأنه لغة عالمية ، ولا يحتاج إلى مترجم .

وأصحاب المحل الذين وضعوا البرنامج على هذا النحو أذكياء ، لأن الطرب نكد فى نكد وغم فى غم ، ولذلك لابد بين وصلات النكد من الرقص ، ولابد بين وصلات الغم من الكوميديا .

وأنا لم أفهم كلمات الأغانى ، لكن فهمت معناها . . فهمت معناها من انفعال المطربات ، وتأثير الزبائن ، ومذاق الموسيقى ، التى هى فى الحقيقة أشبه بالموسيقى التى تصاحب الأغانى العاطفية المصرية .

وكثير من الألحان التى سمعتها هنا ، جعلتنى اشعر أننى سمعتها فى مصر . . وأنفعال الطرب الذى هزنى لم يكن غريبا على . . فقد سبق أن سيطر على كيانى وأنا اسمع أم كلثوم ، ومحمد عبد الوهاب ، وفايزة احمد ، ونجاة ، وسعاد محمد . . فهل ألحان هؤلاء لها جذور ، ونوت ، تركية ، أم إنه مجرد تشابه فى الألحان ؟

ولفت نظرى أيضـا اسلوب الاعجاب الذى يعبر به الجمهور عن تقديره وحبه للمطربات . . اسلوب مهذب جدا . . لايزيد عن تقديم باقات من الورد عليها أسماء أصحابها . . أو نثر أوراق الورد تحت أقدام المـطربـات . . أو تقـديم الـزهـور الحية لهن . . وأحيانا تقدم النساء القبلات ، والأحضان . . النساء فقط .

لا أحد يصرخ فى وجه المطربة . . ولا عظمة على عظمة ياست . .

ولا ياكيداهن . . ولا أحد يرمى بالنقود تحت قدميها ، ولا أحد يقلدها عقد الأوراق المالية . . فقط زهور من الرجال ، وقبلات من النساء .

وهذا هو سر محل الزهور الذى فى المدخل ، وهذا هو سر الورود الموضوعة على الموائد بكثرة . . فلو لم تحضر معك الزهور ، قدمها لك المحل ، وأضاف ثمنها على الحساب .

وهذا سر إضافى من أسرار شهرة مكسيم استنبول . . أن يقدم لك ما تريد ، سواء طلبته أم لم تطلبه . . وجرب أن تطلب أى شىء هنا ، فلن تسمع سوى كلمة واخدة ، كلمة حاظر . . يعنى حاضر . .

أى نوع من الطعام يخطر على بالك . . أى نوع من الشراب تتمناه . . أى نوع من الهدايا تفكر فيه . . حاضر . . موجود أفندم .

قال لى صديق تركى كان يشاركنا السهرة :

ـ فى إحدى المرات ، التى كنت فيها هنا ، كنت فى حالة انبساط ، وقررت أن أسخر من المحل ، وأطلب شيئا من المستحيل إحضاره . . طلبت فاكهة فى غير أوانها . . قالوا : حاضر . . طلبت نوعا من التوابل غير متوافر ، قالوا : حاضر . . طلبت نوعا من الخضار لا يزرع إلا فى البحر الكاريبى ، قالوا : حاضر . . واغتظت . . فقلت لهم : أريد جلد بط بكينى ، مطبوخ بالصلصة ، على أن يقطع جلد البط ويدخل فى حشو ورق عنب ، ثم يوضع ورق العنب فى طاجن كريمة ويوضع فى الفرن . .

ـ سألته :

ـ هيه وبعدين ؟

قال :

ـ أبدا . . سألونى عمّـا إذا كنت أفضل البط من الصين الشعبية أم من الصين الوطنية !

وضحكت . . وقلت له :

ـ ما هو كله بحسابه . . ولو طلبنا الحساب الآن فاننى أخشى أن أصاب بسكتة قلبية .

قال :

ـ ياراجل ، ولا يهمكم . . أنت معزوم على حسابى .

قلت فى انفعال :

ـ أبدا . . لا يمكن . . مستحيل . . سوف نخسر بعض .

ويبدو أنه صدق . . فتركنى أدفع الحساب . . وجاءت الفاتورة . . يانهار أسود . . مش ممكن ٣٠٠ دولار لنفرين . . ودفعت . . وبقى معى ١٠ دولارات ، احتفظت بها للتاكسى الذى سيحملنى إلى المطار . . وركبت الطائرة وأنا مفلس تماما . . ومن مطار القاهرة إلى بيتى ، استلفت من السائق سيجارة .

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢١٢٦/٨٩
الترقيم الدولى ٨ ـ ٢٢٩ ـ ١٧٢ ـ ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

هذا الكتاب

الكتاب رحلة . . والرحلة إلى تركيا . . أرض الفستق والأفيون .

والكاتب حول قلمه إلى كاميرا سريعة الالتقاط . . وراح يصور الحياة . البشر . الطبيعة . الطعام . السهر . قصور السلاطين . عالم الحريم . . والمشاهد اليومية فى دولة كانت امبراطورية ذات يوم وكنا نحن من رعاياها .

والكاتب هو عادل حمودة ، الفائز بجائزة الدولة فى أدب الرحلات ، ومؤلف العديد من الكتب السياسية الأخرى .

وهو يعتز بهذا الكتاب لأنه كاد أن يدفع حياته ثمنا له .

وبعد ان يروى لنا ذلك ، يقفز بنا فى رشاقة بين ما كان وما يجرى فى دولة كانت عظمى ثم أصابها الوهن فراحت تنشر الفستق وتزرع الأفيون .

عبد الحميد أحمد غريب



السعر ٣٠٠ قرشا

دار غـريـب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩